د. محمد رضوان الداية

التقاليد الشامية
في الديار الأندلسية

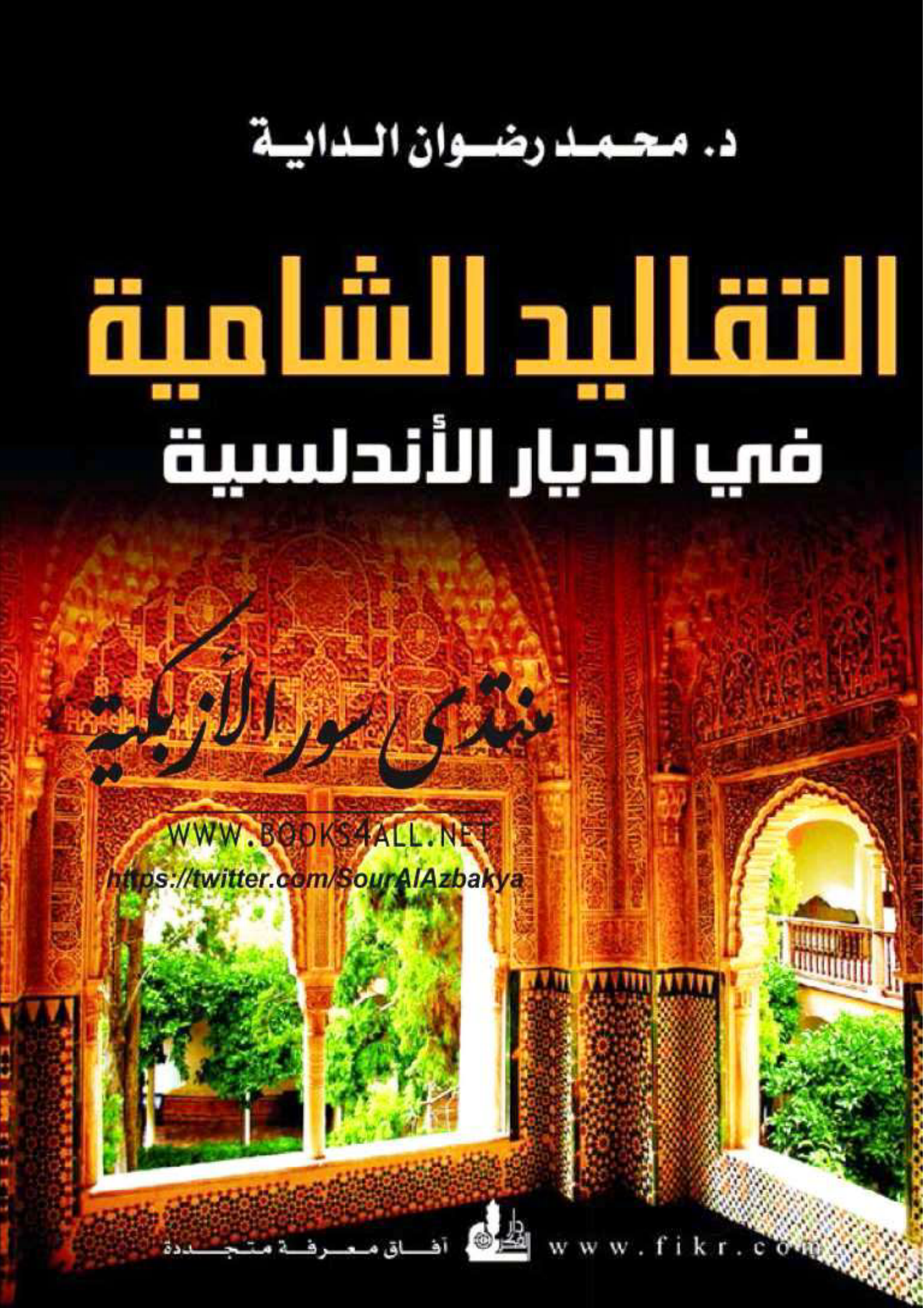

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET
https://twitter.com/SourAlAzbakya

آفاق معرفة متجددة
www.fikr.com

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

https://twitter.com/SourAlAzbakya

https://www.facebook.com/books4all.net

بسم الله الرحمن الرحيم

التقاليد الشامية في الديار الأندلسية

الدكتور محمد رضوان الداية

التقاليد الشامية في الديار الأندلسية

دمشق - سورية

شباب لعصر المعرفة
2010 - 1431

دار الفكر - دمشق - برهكة
٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١
٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١
Http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

التقاليد الشامية
في الديار الأندلسية
د. محمد رضوان الداية

الرقم الاصطلاحي: ٢٢٢٧,٠١١
الرقم الموضوعي: ٣٩٠ (العادات وشؤون السنة)
الرقم الدولي: ISBN: 978-9933-10-125-1
١٣٦ص، ١٧ × ٢٥ سم
الطبعة الأولى: ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م
© جميع الحقوق محفوظة لدار الفكر دمشق

التّقَاليْدُ الشّاميّة

في

الدِّيارِ الأَنْدَلُسيّة

محمّد رضُوان الدّايَة

المحتوى

تصدير من ديوان أمير الشعراء أحمد شوقي ٧

التقاليد الشاميّة.. في الديار الأندلسية ١٠

مَدْخَل ١٧

في موارد هذه التقاليد ٢١

العلاقات بالشام.... ذكريات لا تُنسى ٢٥

إقليم الشام... وإقليم الأندلس ٣٠

أسماء بلدان شامية لبلدان أندلسيّة ٣٤

عبد الرَّحمن الداخل: الدّولة، والتقاليد ٣٧

أمير أندلسي يسيرُ بسيرة عُمر بن عبد العزيز ٤٤

خصائص الحكم الأموي في المشرق والأندلس ٤٧

حضارة الحريّة والإنسانية ٤٩

إمام أهل الشام (في الفقه) إمام أهل الأندلسِ... ..... ٥٢

في تقاليد اللغة العربية ٥٧

أ- السِّيَاسَةُ اللغوية: عربيّة وتعريب ٥٧

ب- من التقاليد الفنيّة: الشعر ٦٠

استطراد لمناسبة ٦٣

أضْدَادُ الأسماء ٦٦

في العُمْران ٧٠

وادي الحِجَارة (ومُدن الوادي الأُخرى) ٧٣

الجامع الأموي في قرطبة ٧٥

الرُّصافة ٧٦

قصر الدّمشق ٧٧
رُصَافَةُ بلنسية ٧٩
قَصْرُ الجِيْر ٨١
مجريط... مدريد ٨٤
الزّهراء ٨٥
الأثر الشّامي في الخَلْق و الخُلُق ٨٦
في منتجات الحضارة ٩١
السُّيوفُ الدّمشْقِيّة ٩٣
صناعات نسيجية ٩٦
دَحُون ابن بَجْدَتها... ابن الشام ١٠٠
من الأزياء الشامية إلى الخيمة البدويّة ١٠١
(البياض) شِعارُ شاميّ - أندلسي ١٠٢
من عناصر الطبيعة بين الشام والأندلس ١٠٦
النّخلُ في الأنْدَلُس... ونَخْلَةُ عَبْدِ الرّحمن! ١١٠
الرُّمّان السّفري ١١١
التّين ١١٤
البرتقال والليمون ١١٥
الوَرْد ١١٥
الرّيحان ١١٧
الزّعْفَران ١١٩
ذيل لموضوع الزّراعة والنّبات... ..... ١٢٠
في الذاهب والباقي من التقاليد.... ..... ١٢٢
تَوْدِيع بقطعة من موشحة أمير الشعراء المعنونة صقر قُريش:
عبد الرحمن الداخل ١٢٨
في المصادر والمراجع ١٣٠

تصدير
من ديوان أمير الشعراء أحمد شوقي

من قصيدته: دمشق*

قُمْ ناجِ جِلّق وانشُدْ رسْمَ مَنْ بانُوا
مَشَتْ على الرّسْمِ أحداثٌ وأزْمانُ[1]

هـذا الأديـمُ كـتـابٌ لا كِـفـاءَ لـهُ
رثُّ الصحائف باقٍ منهُ عنوانُ[2]

الـديـنُ والـوحـيُ والأخـلاقُ طـائـفـةٌ
مـنـهُ وسـائـرهُ دُنـيـا وبُـهْـتـانُ[3]!

---

* من قصيدته (دمشق) التي أنشدها سنة ١٩٢٥ والثورة السورية العربية مُشتعلة ضد الاستعمار الفرنسي، وأُلقيت في المجمع العلمي العربي بدمشق في حفلٍ أُقيم لتكريم شوقي.
- ولشوقي قصائد وموشحات يصحّ أن تسمّى: شاميّات شوقي.

(١) جلّق: دمشق. والرّسم: الطّلل والأثر الباقي.
(٢) الأديم: وجه الأرض. لا كفاء له: لا نظير.
(٣) منه: من الكتاب المذكور في البيت السابق.

ما فيه إنْ قُلّبت يوماً جواهِرُهُ
إلّا قَرائحُ من رَادٍ وأذْهانُ[١]

بنو أميّةَ للأنباء ما فَتَحُوا
وللأحاديثِ ما سادوا وما دانُوا[٢]!

كانوا ملوكاً سريرُ الشرْق تَحْتَهُمُ
فهلْ سَألتَ سَرِيْرَ الغَرْبِ: ما كانوا[٣]؟

عالينَ كالشّمسِ في أطرافِ دولتها
في كلّ ناحيةٍ مُلْكٌ وسُلْطَانُ

يا ويحَ قلبي ممّا انتابَ أرْسُمَهُمْ
سَرى به الهَمُّ أو عَادَتْهُ أشجانُ

بالأمس قمتُ على الزّهراء أنْدُبُهمْ
واليوم دَمعي على الفَيحاء هَتّانُ[٤]

في الأرْضِ منهمْ سَماواتٌ وألويةٌ
ونيّراتٌ وأنْواءٌ وعِقْبَانُ

---

(١) الراد: مختصرة من الرّاديوم (المعدن المشعّ) على التّشبيه.
(٢) أخبار بني أميّة عظيمة هي ملء أفواهِ النّاس، وأحاديث الركبان في فُتوحاتهم وحضارتهم وعَظَمتهم..
(٣) ملؤوا الدّنيا في العالم القديم، فأين كانت أوربة من العِلم والنُّور والحضارة آنذاك؟
(٤) يذكر أحداث الزمان الصعبة على الأندلس، وقد تذكرها في (الزهراء) واليوم يذكر جهاد أهل الشام ضد فرنسة في الفيحاء وسائر الشام (الفيحاء: دمشق).

مَعادِنُ العزّ قد مالَ الرّغامُ بِهِمْ
لو هانَ في تُرْبِهِ الإبريزُ ما هَانُوا[1]

لولا دمشقُ لما كانتْ طُلَيطلةٌ
ولازَهَتْ ببني العَبّاس بَغْدانُ!

(١) الرغام: التراب، والإبريز: الذهب الخالص، يقول أحمد شوقي: بنو أمية في الأندلس والشام، وأهل الشام قد اخْتَلّت أحوالُهم، ولكنَّ هذا أمرٌ طارئ.. فهم كالذهب.. بل أعزّ منه...
- في الكتاب كلام على (الزهراء)، وطليطلة، وعبد الرّحمن الداخل... (في ظلّ عنوان الكتاب).
- وبيت شوقي من أكثر أبيات الشعر، وسائرِ كلامِ الناس، إنصافاً لدمشق!

التقاليد الشامية..

في الديار الأندلسية

عرَّف مجمع اللغة العربية كلمة (التقاليد) اختصاراً، وفيه[1]:

«التّقاليد: العادات المُتَوارثة التي يُقلّد فيها الخلَفُ السَلف».

ويكثُر استخدام الكلمة في مجال التّراث الشّعبي، وتصوير الحياة الاجتماعية في منطقة محدّدة، وفي زمانٍ مُعَيّن، قديماً كان أو حديثاً. وتتسع دائرة استخدام (التّقاليد) كثيراً. وتُضافُ إليها كلمة (عادات) فيقال: العادات والتقاليد في كذا وكذا.. ومن هذا كتاب إدوارد وليم لين المُعَنون: (عادات المصريّين المُحْدَثين وتقاليدهم) رصد فيه الحياة في مصر ما بين ١٨٣٣-١٨٣٥م. وقد مرّ في كتابه على جغرافية مصر، ومُناخها، واسْتَشَفّ - بحسب رُؤيته - ملامحَ الشخصيّة المصرية لفئاتِ المجتمع (كما قسّمها هو) وعرّج على الحياة المنزلية والعامّة، واللغة والأدب والعلوم والرّقص، والمباني (داخلاً وخارجاً) والشوارع، والحارات؛ وصولاً إلى الأفراح والأتراح.. وأنواع الزينة والاحتفالات الشعبية.. إلخ.

---

(١) المعجم الوسيط: (ق ل د).

وألّف أحمد أمين كتاباً في الموضوع جعله مُعجماً وسمّاه (قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصريّة) وضع فيه خلاصة ملاحظاته في الحياة المصريّة وكاد أن يستوفي المظاهر المهمّة في وقته (أواسط القرن العشرين) من الطبائع والعادات الشعبية والتقاليد المختلفة عند مكوّنات الشعب في مصر؛ في المدن والقرى والأرياف، وعند المسلمين والأقباط واليهود.. إلخ.

وقد تكون دراسة (التقاليد) شاملةً عامّة تُحاول الاستقصاء كالذي ذكرتُه عن كتاب لين وكتاب أحمد أمين؛ وقد يتناول الدارس جانباً من جوانب الحياة وعناصرها وأدواتها كالمؤلفات في (الحمّامات)[١] و(الأسْبِلَة)[٢] و(عادات الميلاد)[٣] و(الختان)[٤] إلخ.

وقد وردت عبارة (التّقاليد الشاميّة) في عدد من الدّراسات الأندلسية: فيما كتبه المُستشرقون مثل ليفي بروفنسال، وفيما كتبه الباحثون العرب، وهم كُثُر، أغلبهم من الجامعيّين الّذين اختصّوا بالتّاريخ، والآثار، والآداب.. واهتموا بالحياة الاجتماعية في الأندلس عامّة، أو في مدينة معيّنة مثل (قرطبة)[٥].

وقد سجّلتُ (على وسع الطاقة، وعلى ما أفادتني المصادرُ والمراجع، وما أفادني المنهج المحدد الذي رسمتُه) ملاحظات يصلح أن تستظل بالعنوان المختار، وهو:

(التقاليدُ الشّاميّةُ في الدِّيار الأنْدَلُسِيّة).

---

(١) مثل: الحمّامات الدّمشقية: منير كيّال.

(٢) مثل: الأسْبِلة العُثمانية بمدينة القاهرة ١٥١٧-١٧٩٨: د. محمود حامد الحسيني.

(٣) مثل: عادات الميلاد في مُجتمع الإمارات العربية المتحدة وقطر والكويت: إسماعيل علي الفحيل وآمنة راشد الحمدان.

(٤) مثل: قُرّة العَيْن في فرح الزّين لعبد الرحمن الملاح، تحقيق محمد رضوان الداية.

(٥) عامّة قرطبة في عَصْرِ الخلافة: أحمد الطاهري.

وقد بيّنتُ في المقدّمة، وفي فقرات البحث مصادري ومراجعي، وخُطّتي، وهدفي؛ وهو بحث تناثرت المواضع المُناسبة له، والمادّةُ التي يُمكن الانتفاع بها؛ شذراتٍ وقبساتٍ، ولمحاتٍ، ولكنّها، إذا اجتمعتْ، ونُسّقَتْ في فقرات تحت عناوين مناسبة تقدّمُ - كما آمَلُ - صورةً تقريبية فيها ملامِحُ ظاهرةٌ لما نبحثُ عنه من العلاقة؛ بل من العلاقات، الموصولة المتشابكة بين الشّام، والأندلس..

إنها قصّة تاريخ حيٍّ، وتشابُكِ أطرافٍ من أبناء الأُمّة، وقصّة رسالة، وجُنود معلومين ومجهولين ركزُوا ألويةً، وقدّموا صُوَراً مُشَرِّفة، ونشروا لغةً، وأنشؤوا حضارةً، وسجّلوا في تاريخ الفكر والفنّ والثقافة والعقيدة ما لم تسجّله أُمّة... نقول هذا نحنُ، ويقولُه كثير من المؤرخين المُنصفين، ويندُّ رغماً أو سهواً عن أقلام المغرضين والمُعادين.. وغير المُنصفين...

ويدهشكَ عزيزي القارئ وفرة الكتب المؤلفة عن آثار الأندلس العربيّة الإسلامية من أقصى جزيرة الأندلس (شبه جزيرة إيبرية: إسبانية والبرتغال) إلى أقصاها، ويدهشك أيضاً إنصاف بعض المنصفين، ومغالاة كثير غيرهم في ردّ الصّروح العربيّة (المساجد والقُصور والقِلاع والجُسور - القناطر - والحمامات، والأسوار والمُنى - الفيلات - إلخ..) إلى أُصول غير عربية... حتى القُرى والمُدن التي ذكر التاريخ العربي، والغربيّ كالإسباني القديم أنّها عربية أولاً وآخراً وُجِدَ من يُشَكّك في أصالتها العربية الأندلسية!..

ويُدهِشُ القارئ من أيّ أمّة، وأي ثقافةٍ محاولات ردّ عبقرية ابن حزم إلى كونه (إسبانيّاً) بالمعنى القوميّ للكلمة، ونقرأ: «كان ابن حزم إسبانيّاً في طيّات أعماق روحه، ومن العَدْل أن نضعه بين أسمى قِمَمِ الفكر الإسباني على امتداد كل العصور[1]..».

---

(١) ابن حزم قمة إسبانية للمؤرخ الإسباني: سانشس ألبرنس بحث ترجمه د. الطاهر =

وحَسَنٌ أن يُشاركنا أيّ باحثٍ في انتماءِ أديبٍ أو عالمٍ أو مُبدع في أي فنّ؛ ولكنّنا لا نقبل أن (يَحْرِمَنا) من حقّ انتسابه إلينا في ثقافته وفكره ولغته وإبداعه ولو عن طريق المُشاركة[1]!..

وبالمناسبة لابدّ من أن نشكر أولئك المُستشرقين من الإسبان وغيرهم وإن اختلفنا معهم هنا أو هناك؛ فإنهم يقدّمون للتراث الأندلسي (في جوانبه المختلفة) أعمالاً مهمة ويبذلون - وخاصّة في المدّة الأخيرة - جهوداً عظيمة...

ولابد أيضاً من أن نجعل بُحوثنا ودراساتنا وترجماتنا وفق خطة مدروسة وأن نضع الخُطط المستقبلية لإنشاء المراكز والمعاهد التي تُتابع هذا التراث وتلك الدراسات، وأن تخصّص الميزانيات ويُهيّأ الباحثون الذين تمّت تهيئتهم تهيئةً عالية (في اللغات والآثار والآداب والتواريخ) ليكونوا في جملة البعثات التي تدرس الآثار العربية في شبه جزيرة إيبرية،

= مكي في: (دراسات عن ابن حزم وطوق الحمامة)، نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة ١٣٩٦-١٩٧٦، ١٣٥-٢٠٢.

(١) أشارت أ. نجلة العزّي إلى تحطيم الآثار الأندلسية العظيمة وإلى انكباب السّائحين على الباقي القليل من تُراثنا المعماري الحضاري في الأندلس لنفاسته، ثم عرّجت على الآثار الأندلسية ونوعية غريبة من دارسيها، قالت - وهي تذكر اهتمام الدوائر بالآثار العربية الإسلامية لأغراض اقتصادية -: «ولم تكن أهميتها العربية ومميزاتها الإسلامية الهدف الرئيس، إذ كان الاهتمام بدراسة هذه الآثار منصباً على تجريدها من كل أصالة عربية، وتجريد العرب الفاتحين من كل أساس حضاري، وذلك بإرجاع أصول معظم الآثار إلى الرومان والقوط» ص٧ من كتابها (قصر الزهراء في الأندلس). وفي مقدمة (الفن الإسلامي في الأندلس الزخرفة النباتية) لمالدونادو ومراجعة د. محمد حمزة الحداد إلى المغالين في تجريد العرب والمسلمين من الإبداع الفني وإلى موجة جديدة من المقتربين من الموضوعية (نسبياً) حتى مالدونادو (المعتدل) يسكنه هاجس البيزنطيّين والقوط!! (٥-١٣ من التقديم).

وفي بقاع أُخرى مُختلفة.. فإنّ من حقّ الأمة؛ مَنْ مضى منها فأدّى واجب الحضارة، ومَنْ حضر فهو جديرٌ بأن يَعْرِف، ويتعلّم، ويفخر...

- وأُمّة بلا ماضٍ أمّة تفتقرُ إلى القُدرة على اختراق المُستقبل.

* * *

فهذا البحثُ إذن يعرضُ لكلّ ما يدخل في (التّقاليد الشامية) مرصوداً منها رحلتُها إلى الأندلس، مع الفاتحين الأُول في طوالعهم... ومع الوافدين على الأندلس من ديار الشام، ومع الخارجين من الأندلس إلى المشرق في حجٍّ أو عمرة أو طلب علم، أو سياحة أو تجارة أو صلة رحم لأنهم كانوا يعودون بأشياء مادية، ومعنوية...

وملاحظاً معها: اهتمامُ عبد الرحمن الداخل ومَن جاء بعده بتوكيد تلك التّقاليد (بالمعنى الواسع) حتى أواخر الدولة الأمويّة.

ومُنْتَبَهاً فيها إلى وفرةِ الشّاميّين، والقادمين من الشام وغيرها بعد غلبة المُسوِّدة العبّاسية على المشرق، وكان فيهم الجمّ الغفيرُ من أهل الخبرة والعلم والصناعة..

... وإلى عراقة التُّراث الشّامي في وُجوه الحياة العمليّة والعلميّة والثقافيّة والحضارية...

* * *

وقد قسمتُ هذه الدّراسة أقساماً بحسب مُفردات البحث، وإن كانت هذه الدراسة مُتواصلة الأجزاء بمقدارِ ما سمَحت المادّةُ المُتوافرة: نُصوصاً قديمةً، ودراساتٍ حديثة ومُعاصرَة...

وآمل أن يكونَ هذا الموضوع مما يُثري الدّراسات الأندلسية من جهة، والدّراسات الشاميّة من جهة أُخرى، عن مُدّةٍ شحيحة المعلومات

أو هي قليلة... لكنَّها كافيةٌ لرسمِ صُورةٍ: أرجُو أن تصلَ ملامِحُها إلى القارئ، وأنْ تنالَ إعجابَهُ، وأنْ ترجِعَ به - في الذّكرى والأمل - إلى أيام عِزٍّ عظيمة...

محمد رضوان الداية

دمشق الفيحاء: شعبان ١٤٢٩

: آب (اغسطس) ٢٠٠٨

مَدْخَل

موادّ هذا البحث (الرسالة - الكتاب) مضمومةٌ من كتب التّراث الأندلسي خاصّة، فهي المَعِيْنُ الأوّل الذي استقيتُ منه، ومن كُتب التاريخ والأدب والفنّ والآثار وغيرها التي كان فيها رجعُ صدىً للأندلس، وأهلِ الأندلس، ونتاجهم العلمي والأدبيّ والفني، وإن جاء متأخراً في الزّمان؛ ومن دراسات المُستشرقين: لقد كانت (الأندلسيات) مادةً مهمّة عند كثير منهم من الإسبان أنفسهم، ومن غيرهم، ممّن وجدوا في التراث الأندلسي مادةً غزيرةً لدراستها والتخصّص فيها؛ ومن دراسات الباحثين العرب الذين انتبهوا - ولو متأخرين - إلى الكُنوز، واللقى، والمَنْسِيّات من ذلك التراث في جوانب المعرفة المختلفة. ويُضاف إلى هؤلاء جميعاً عددٌ من الآثاريّين - الإسبان خاصةً - وقد عادوا إلى آثار الأندلسيّين بعد أن حطّمها أجدادهم عمداً في حركة الاستغلاب[1] ضد العرب التي كان من مظاهرها إحراق الكُتب، وهدم القصور، والمساجد، والقلاع، والحمامات وسائر العمائر. إضافةً إلى عامل الزّمن الذي أثر في الباقي الذي نجا من أيدي رجالِ الظُّلمات المتعصبين قبل محاكم التفتيش، وبعدها.

---

(١) آثر د. حسين مؤنس كلمة (الاستغلاب) بدلاً عن (الاسترداد)، ويُعجبني أن أستعملها كما وضعها لفظاً ومعنىً.

ووجود الشّام، وكلّ ما يُمكن نقلُه وانتقاله، في الأندلس كان وجوداً عظيماً مهمّاً، وهو يختلفُ - بالزيادة الكبيرة - عن العلاقات المتبادلة والصلات الموصولة بين أقاليم الدولة العربية الإسلامية التي اكتسبت عنوان (الدولة الأموية) منذ عام الجماعة ٤١ هجرية إلى هُويّ تلك الدولة الفتيّة بضرباتِ المُسوّدة سنة ١٣٢هـ فقد كانت البلاد مفتوحةً بلا حدود ولا حواجز من نواحي الصّين إلى ما وراء جبال الأبواب الفاصلة بين إيبرية والأرض الكبيرة: فرنسة وما وراءها.

- لكن الأمر بين الشّام والأندلس كان خاصاً جدّاً:

١- فقد استطاع شريدٌ ناجٍ من سُيوف المُسوّدة العبّاسية أن يصل إلى المغرب وأن يجوزَ إلى الأندلس، وأن يجِدَ من أنصار بني أُميّة، والمُنضمّين إليهم ما أعانه على إقامة الدّولة الأموية من جديد؛ هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان. فمُجَدّد الدّولة إذن من الفرع المروانيّ من الأمويّين. ومن هنا عُرِفت الدولة هناك بالدولة الأموية، وبالدولة المروانيّة.

وقد انضمّ إلى عبد الرحمن كلُّ من استطاع النّجاة ممّن بقي على قيد الحياة بعد المجازر العباسية التي لم تتوقّف حتى أبادت، وكادت تستأصل. ولحق بالأندلس كلّ طريد شريد كان ميّالاً إليهم، أو يُحتمل أن يُتّهم بموالاتهم إلى آخرين وَجَدُوا في المغامرة إلى ذلك البعيد أملاً يرجون تحقيقه.

٢- كان عبدُ الرحمن مشغُوفاً بالمشرق، ملتفتاً بقلبه إليه، لقد أنشأ الدّولة الجديدة، وأفنى مُعظم حياته في تأثيلها، وتعميرها، وفي القضاء على الفتن الكثيرة التي كانت في الأندلس جزءاً من الحياة الاعتيادية قبل دخوله الأندلس؛ (وستكون على شيء من ذلك بعد زمانه). وفي أخباره أنه فكّر: لو هدأت أحوالُ الأندلس، واستطاع إعداد الجيش المناسب، أن

يلتفّ على المشرق من أوربة ليعيد الدولة الأموية في المشرق، ويجمع الإسلام بين غرب الدّنيا وشرقها.

ومن شغفه بالمشرق، وتشرّبه بتقاليد الحكم الأموي نقل كثيراً من تقاليد الحُكم والحياة في الشّام إلى الأندلس عامداً قاصداً.

٣- صَنع عبد الرحمن مثل ما صنع جدُّه هشام في البناء والعُمران والتوسّع، وأرسى دعائم الدولة الجديدة على الرسوم المشرقية الشاميّة (وسيجيء كلام ابن حزم في الدولة الأموية شرقاً ومغرباً).

٤- جلبَ عبد الرحمن من المشرق من النّباتات ويُزور المزروعات، ومن الأشجار ما نقل أشياء كثيرة من البيئة الشامية إلى البيئة الأندلسيّة. وعلى سبيل المثال فإن عبد الرحمن كان أوّل من زرع نخلةً في الأندلس. ومن هناك انتقلت إلى بعض البلدان الأوربيّة، وله شعر في النخلة المذكورة (سيردُ ذِكره)، إضافة إلى أمور كثيرة استجلبها أو جاءت إليه إهداءً وإطرافاً.

٥- لاحظ المؤرخون والآثاريون العلاقة الواضحة بين عناصر الفنّ العمراني وبعض عناصر التزيين في المساجد والقصور وغيرها في الأندلس ونظائر لها في المشرق؛ الشام خاصةً، ولاشك في أنّ عبد الرحمن وهِشاماً، والحَكَمَ[1] كانوا يعتمدون على الخبرة العمرانيّة لمهندسين و(عُرَفاء) وافدين من الشام.

٦- فيما يأتي كلامٌ على كثرة الشّاميين في الأندلس، وخصوصاً في المراحل الأُولى من حياة الإسلام في الأندلس. وقد أثر هذا في انتشار الثقافة السائدة في الشام، وفي سيادة المذهب الفقهي الذي كان معمولاً

(١) عبد الرحمن، وابنه هشام الرّضا، وحفيده الحَكَم بن هشام، وسيرد عنهم كلام فيما يرد.

به فيها، وفي اعتماد الأمراء الأمويّين على القُضاة، والإداريّين الشاميّين... إلى أن تداخلت عناصر المُجتمع بعد ذلك بزمان.

وقد استمر هذا الطابع الشّامي غالباً في عصري الإمارة والخلافة الأمويّة، وإن تداخلت العناصر مع اتساع آفاق العلاقات بين المشرق والمغرب: في التجارة والسياحة، وطلب العلم، وسائر جوانب حركة الحياة.

في موارد هذه التقاليد

وهذه التقاليد الشّامية التي انتقلتْ مِن الشام إلى الأندلس تشربُ من موارد متعدّدة:

١- كانت الشام في ظلال حضارة جديدة وليدة ذات خصائص متميّزة، وصحيحٌ أن العرب حين نزلوا الشام - وغيرها - مع الفُتوح لم يجدوا أرضاً خلاء ولا فكراً خواء، ولكنّ الثابت أيضاً أنهم بسُرعةٍ يستغربها المؤرخون والآثاريّون استطاعوا أن يجعلُوا لأنفسهم معالم حضارةٍ تتسّقُ مع معالم الحضارة العربيّة الإسلامية، وتؤطّر مظاهرها وفاقاً لتلك المعالم التي تقبلُ حيناً وترفضُ حيناً، وتُعطي من خصائصها في الأحيان الكثيرة.

وحضارةٌ واضحةٌ، متناسقةٌ، شابّةٌ، منتجةٌ، زاهيةٌ كهذه جديرةٌ بأن تَسِيْحَ في الأرض، وأن يفخر أهلُها بحملها ويتباهوا بنقلها.

٢- كان البُعد الجغرافي الهائلُ الذي يفصِلُ أدنى الأرض (الشام) عن أقصاها (الأندلس) يُذكي في نفوس الواصلين إلى تلك الديار الحنين، ويُثير الشجن، على رغم نُبل الغرضِ الأصلي من دُخول الأندلس، وهو نشرُ الدّعوة لمن يتقبّلُها، وإخبار من يأبى أن الجادّة التي يُلقي الإسلامُ الضوء عليها هي الجادّةُ المؤدية إلى النجاة وبعد ذلك: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٦].

ويتأكد هذا الحَنيْنُ والشَّجَنُ في النُّفوس حين يكونُ المغادِرُ من ديار إلى ديار، مع هذا البُعد إنّما يغادرُ وحيداً؛ فهو في الأصل مُجاهد. ثم إنّ الناس أنِسُوا بالمجتمع الجديد، واستقروا، وتمَّ الزواج فيما بين أطيافهم.

ومع هذه العواطف تكونُ القُلوبُ موصولةً بالأصول، ملتفتةً إلى المنابت، مسترسلةً مع الذكريات التي لا تموت (انظر الرِّسالة التي بعث بها جماعة محمد بن صالح إلى أقاربهم جماعة معاوية بن صالح قاضي الأندلس في هذا الكتاب).

٣- كانت الأندلسُ بالقياس إلى الوافدين عليها كالأرض البِكر التي تَقْبَلُ ما يُلقى إليها. وأدركُوا من البدء أنّ هناك تشابُهاً كبيراً بين ديارهم الأصليّة وبين هذه الأرض الجديدة، فبنَوْا وشيّدوا، وسوَّرُوا، وزَرَعُوا، ولبسوا وتزيّنوا، وغنّوا، ونظمُوا الشعر، وكتبوا الرسائل، وسَهِرُوا اللّيل، وناجوا القمر، وكأنّهم ما زالوا في ديارهم، وبقيت الأندلسُ في مظاهر كثيرةٍ في الحياة من جهاتها الكثيرة امتداداً للأرضِ القديمة، مع اندماجٍ، وتلوينٍ جديدٍ، ومن ثَمَّ في تكوينٍ جديد في الأرض الجديدة.

٤- كان لعبد الرحمن الدّاخل أثرٌ مهم في هذا الوصْلِ المتين بين الشّام والأندلس. لقد كان في قمّة السُّلطة، فلرأيه أثرٌ مهمّ. ولكنَّ المؤثر هو شخصية عبد الرحمن: الذكيّ، العاطفيّ، الناشبة عروقُه كلّها في حقيقة أُمته، وفي حضارةِ شامِه، وفي مناقبِ أسرتِه الأُموية - المروانيّة، المتشرّب حتّى الثُّمالة من الألق الذي كانت عليه الإمبراطوريةُ العربيّة - الإسلامية في عِزّها قبل انهيار الدولة سنة ١٣٢هـ لقد كانت دمشق، والشام ومَنْ فيها وما فيها رَهْنَ فكره وصُحبةَ خياله..

وأترك الاحتجاج لهذه الفقرة للدكتور السّيّد عبد العزيز سالم؛ فقد قال: «وهكذا طَعَّمَ عبدُ الرحمن حضارة الأندلس بالطّابع السوري وإليه يرجعُ الفضل في غرس بذور نهضة علميّةٍ زاهرةٍ بقرطبة، وستنمو هذه

النهضة على مرّ الأيّام حتى تصبح قرطبة في عهد أحد أحفاده عاصمة الدنيا ومركز العلم والحضارة.

وهو لذلك يُعتبر أعظم أمراء بني أمية في الأندلس، ولولا أن الخليفة عبد الرحمن الناصر سيقومُ بدورٍ مشابهٍ لدوره لقلنا: إنه أعظمُ من تولى الأندلس من بني أميّة»[١].

وقال في مجال آخر: «إنّ عصر بني أمية في الأندلس يُعد امتداداً لعصرهم في المشرق»[٢].

٥- ركّز المقّري على عُنصرين ذوي أهميّة فيما نحن بسبيله من حديثٍ، فقد قال وهو يسوّغُ استجابته لأهل دمشق بتأليف كتابٍ عن لسان الدين بن الخطيب خاصة والأندلس عامة[٣]:

- «إن الفاتحين للأندلس هُم أهلُ الشّام، ذوو الشّوكة الحديدة. وفي نسخة من النفح: ذوو النّجدة والشّوكة».
- وإنّ غالِبَ أهْلِ الأندلس: «من عَربِ الشّام الذين اتخذُوا بالأندلس وطناً مستأنفاً وحضرةً جديدةً».
- وأضافَ أمراً يَخُصُّ (غرناطة): إنّ غَرْناطة «نزَل بها أهلُ دمشق (يعني حين فرّق أبو الخطار الكلابي طالعة بلج...) وسَمّوها باسمها لِشَبَهِها بها في القَصْرِ والنَّهْرِ، والدَّوْح والزّهر، والغُوطةِ الفيحاء..».

٦- الاتصال الطّويل، والعميق، بين الأندلس والشّام خاصّة، وسائر بُلدان المشرق والمغرب عامّة:

---

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم: ٢٠٩.

(٢) المساجد والقُصور في الأندلس: ٤٩.

(٣) نفح الطيب: ١/ ١١٧ (والكتاب المعني هو: نفح الطيب نفسُه).

- يخرجُ من الأندلس الحُجّاج والعُمّار والتجّار وطلبة العِلم والسّائحون والرحالة...
- ويدخل إليها التجار، وأهل الفن والموسيقا والأدب، والعُلماء والمغامرون طالبو الفائدة والمال (نظراً لسمعة الأندلس العالية).
- وتتحرّك في أثناء ذلك بضائع المشرق إلى الأندلس، وبضائع الأندلس إلى المشرق.
- وهنا خبر طريف! في الكُتب التي أقتنيها كتابٌ عنوانُه (حضارة العرب في الأندلس)[1] وهو كما قال المؤلف عبد الرحمن البرقوقي[2]: «رسائل تاريخيّة في قالب خيالي بديع». قال في مقدمة كتابه الصفحة (د): إنه قرأ خبراً، مصادفةً في تاريخ أبي الفدا يقول[3]: إنه «في سنة ٣٤٥ هجرية عمل عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس مركباً كبيراً وحشد فيه كثيراً من بضائع الأندلس وأرسله إلى بلاد المشرق لتباع هذه البضائع هناك وتُستبدل منها بضائع مشرقية». فألف كتابه على لسان رحّالة من مصر يخرجُ من الإسكندرية قاصداً الأندلس في مركب الناصر نفسه... إلخ.

---

(١) صدر في القاهرة سنة ١٣٤١-١٩٢٣.

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد الرحمن البرقوقي (١٨٧٦-١٩٤٤) أديبٌ مصري، له مؤلفات مثل شرح شعر المتنبي وشرح ديوان حسان، وأصدر مجلة (البيان).

(٣) هو أبو الفداء إسماعيل بن علي الأيوبي، الملك المؤيد صاحب حماة (٦٧٢-٧٣٢) وكتابه المذكور هو: (المختصر في أخبار البشر).

العلاقات بالشام....
ذكريات لا تُنسى

كان الأندلسيّون الأوائل، مثل عبد الرحمن يتشوقُون إلى الشام ويلتفتون إلى ما يكون فيها، وما يجيءُ منها. وفي ترجمة مُعاوية بن صالح الحَضْرمي، الحمصي (وكان محدّثاً فقيهاً قاضياً) أنّ عبد الرحمن الداخل أرسله إلى الشام ليأتيه بأخته أُم الأصبغ فاعتذرت إليه بكبر السنّ، وبأن المسوِّدة قد كفّوا عنها أذاهم. وأرسلت إلى أخيها ببعض الهدايا، وجاء معاوية بما وجده مناسباً، وقال الخشني في ترجمته إياه[1]:

«ثم لمّا صار معاوية إلى الأمير عبد الرحمن أدخل إليه تحف الشام، وكان في تلك التحف من الرمان المعروف اليوم بالسّفري[2] فجعل جُلساء الأمير من أهل الشّام يذكرون الشّام ويتأسفون عليها..».

ويلحق بهذه الفقرة رسالة رقيقة أثبتها الخُشَنِيّ في كتابه في ذيل ترجمة معاوية بن صالح[3] المذكور، قال:

---

(١) قضاة قرطبة للخشني: ١٦-١٧، وفي بعض المصادر: ليحضر أختيه، وكانت أُم الأصبغ هي الأشهر.

(٢) ثمة كلامٌ على (الرّمان السَّفْرِي) في فقرةٍ مستقلة.

(٣) هو أبو عمرو معاوية بن صالح بن حُدَير، الحضرمي الشّامي الحمصي. ولد في =

«كان لمعاوية بن صالح أخٌ يُسَمّى محمد بن صالح: عَقِبُه بالشام كثير، لم يدخل أحدٌ منهم الأندلس، قال أحمد بن محمد بن أيمن قال: رأيتُ رسالةً كتب بها البقيّةُ من ولده بالشّام إلى البقيّة من ولد معاوية بالأندلس نُسخَتُها:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إلى جماعة ولد مُعاوية بن صالح الحضرمي من جماعة ولد محمد بن صالح الحضرمي: تولّاكمُ الله بحفظه، وحاطكم بصدقه، ومدّ لكم في نعمته، وزادكم من إحسانه.

إنّ الله - جل ثناؤه، وتقدّست أسماؤه - جعل بين الناس أنساباً يتعاطفون بها، ويتواصلون عليها، أوثقَ عُرَاها وأتْقَن قُواها. وأنتم - وهب الله لكم العافية - الشعبُ الأدنى والنَّسَبُ الأولى. يجمعكُم وإيّانا الجدّ المعروف بـ(حُدَير)[1]، والقرابة بالقرابة[2] - وإن جرى القضاء باغتراب بعضٍ عن بعض، وشَحْطِ[3] دارٍ عن دار - ماسةٌ لا يوهِنُ أسبابها تقادمُ

= حدود الثمانين في دولة عبد الملك بن مروان، حلاه الذهبي بقوله: الإمام الحافظ الثقة، قاضي الأندلس. من رواة الحديث وثقه يحيى بن معين وابن حنبل وغيرهما. وكان معاوية فيمن فرّ من الشام مع المروانية فدخل الأندلس. ولما تولى عبد الرحمن الداخل الأندلس ولاه قضاء الأندلس. وقد حجّ وحدّث بالحجاز وغيرها، وكان حجه سنة ١٥٥هـ وتوفي سنة ١٥٨هـ ترجم له في سير أعلام النبلاء: ٧/ ١٥٨-١٦٢، ومصادر ترجمته ثمة.

(١) انظر الحاشية السابقة.

(٢) العبارة هي: القرابة ماسّةٌ بالقرابة: شديدةُ الصّلة والوُثوق. تقول: بيننا رحمٌ ماسّةٌ: قريبة جداً.

(٣) شحطت الدار: نأت وبعدت.

الانتزاح[١]، ولا يُعفّي على واجب حُقوقها بُعدُ التّزاور. وما عدمْنا - أكرمكُم الله - من أنفسنا تطلعاً إليكم، ولا تركَ منْ رَزَقَهُ الله الحجّ مِنّا المسألةَ عنكُمْ في حُجّاج المغرب[٢] طمعاً في موافاة بعضكم، وتشوّقاً إلى استفادة علمِ خبركم. فلم يأذن الله أن يوافي سائِلُنا دالّاً عليكم، ولا مخبراً عنكم حتى وقع بظنوننا ما يقع مثلُه بالظنون على فروط[٣] الليالي والأيّام، ومرور الشهور والأعوام، من الانقراض والنفور حتى أهدى الله لنا عِلْمَ ما كنّا نتطلّع إليه منكم أبْعَدَ ما كنّا طمعاً فيه، وأشدّ يأساً مع حامل كتابنا هذا إليكم وهو أبو الحارث بشر بن محمد بن موسى القرشي، فإنه صار إلى حمص مُنصرفَهُ من بغداد نافذاً إليكم، فسأل عنا بفضل ما ألزم نَفْسَهُ لكم إذْ كنتم على ما ذكر أخواله، وكانت أمُّه أمّ عمرو بنت محمد بن معاوية بن صالح، وأحَبّ الانصراف إليكُمْ بخبرنا، فأُخْبِرَ بمكاننا، وأُرشِدَ إلينا، وأتانا من رجل ظاهر الفضل موسوم بالخير، معه من خبركم، وعلم أمركم ما امتلأت به الصّدورُ سروراً وحبُوراً، وجعلنا لا نكشفه في مساءلتنا إياه، وتقصّينا على ما عنده إلّا يكشف لنا عمّا يزيدُ النّعمة علينا فيكم من الله عِظَماً في تَسْنِيَةِ أقدارِكم وتشريفِ مذاهبكم.

فالحمدُ لله رب العالمين الذي مَنّ علينا بما تناهى إلينا عنكم، وتقرّر عندنا من فضل حالكم، ونسأل الله إتمام

---

(١) الانتزاح والنّزوح: البُعد.

(٢) كلمة (المغرب) كانت تقال في الأندلس والمغرب عامة؛ في كثيرٍ من أدبيات المشارقة.

(٣) فرط: مرّ ومضى.

ما حُبيتُمْ به[١] ويزيدكم من كل خير ويزيدنا بمزيدكم، وأن يعوّضكم وإيانا من الفرقة التي كتبها علينا، فباعد بيننا وشَتَّت شملنا، وأن يجمع بيننا في جنانِه، ودار رضوانه، ومحلّ أوليائه إنّه قريبٌ مجيب...

وكتابنا إليكم - حجب الله عنكم كلّ مكروه - ونحن من الله في نعمةٍ، وكل بلائه عندنا جميل، وحالُنا في خاصّة قومنا، وكافة عِترتنا وجندنا الحالُ التي يحبّون أن نكون بها، وعليها، في البسطة فيهم، والتقدّم عليهم.

وقد شاهد بشر بن محمد من أمرنا ما لعلّه سيخبركم به.

فحمداً لله وشكراً على إحسانه، ورغبةً إليه في صالح المزيد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتُه».

والرّسالة المذكورة مثال نادرٌ على متابعةٍ جرتْ بين طرفي أُسرة واحدة. والمتراسلون هم الجيل الرّابع: أحفادُ القاضي معاوية بن صالح الحضرمي، وأسْبَاطُه كلّفوا أحد أسباط محمد بن مُعاوية بن صالح - وقد كان له شغلٌ في بغداد - أن يمرّ في طريق عودته على (حمص) ويسأل عن البقية من عقب (محمد) أخي معاوية بن صالح، واسمُه: بشر بن محمد القرشي.

وبيَّنَ أهلُ حمص لأقاربهم من أهل قرطبة أنّهم كانوا يسألون عنهم في مواسم الحجّ كلّما أُتيح لأحدهم أو لمن يكلّفونه عنهم حتى أقبل عليهم رسولُهم. فكتبُوا لهم رسالة ذكروا فيها سرورهم بالسؤال عنهم وبأخبارهم الحسنة وذكروا من أحوالهم ما أنعم الله تعالى به عليهم.

(١) يقال: حباه كذا، وحَباه بكذا: أعطاه. أي: أن يتمّ عليكم نعمته.

وكان رجاؤهم في اللقاء بعيداً، ورجوا أن يُكتبَ لهم اللقاء في جنّان الله تعالى ودار رضوانه؛ إن تعذّر اللقاء.

- وللرسالة أكثر من جانبٍ من جوانب الأهميّة:
  - في استغراق الأندلس لأهلها.
  - وانشغال قلوب الأهل (بعضهم لأجل بعض) على البُعد المكاني الشديد؛
  - واتصال أواصر القرابة على مُرور الزّمان المتطاول، وتحرّي صلة الرحم.
- وفيها دلالةٌ على وسائل الاتصال المتاحة (الحجّ، الرحلة التجارية، طلب العِلم.. إلخ).
- والرسالة نصٌّ أدبيّ ذو أهمية في قراءة حال الترسُّل الفني (أواخر القرن الثاني - وأوائل الثالث تقديراً).

إقليم الشام...
وإقليم الأندلس

يلقانا في كُتب الجُغرافية الأندلسية والمشرقيّة، وما نُقِلَ عنها في التّواريخ والمُحاضرات وغيرها كلامٌ يربطُ بين الشّام والأندلس، ومن ذلك ما نقله المقري في نفح الطّيب[1] قال:

«قال أبو عامر السُّلمي في كتابه (درر القلائد وغرر الفوائد):

الأندلس من الإقليم الشّامي[2]، وهو خيرُ الأقاليم، وأعدلُها هواءً وتراباً، وأعذبُها ماءً، وأطيبُها هواءً وحيواناً ونباتاً، وهو أوسطُ الأقاليم...»[3].

وقال البكري الأندلسي[4]:

---

(١) نفح الطيب: ١/ ١٢٦، وكتاب السلمي الأندلسي مفقود.

(٢) ينظر تقسيم ياقوت للأقاليم في الكلام المُسَطّر، وفي الخرائط المرافقة (١/ ٢٨-٣٢)، وقد أشار الحميري في الرّوض المعطار إلى اختلاف التقسيم بين الجغرافيين، وقال: إن الرازي يجعل الأندلس في آخر الإقليم الرابع، وصاعد الأندلسي يجعلُها في الإقليم الخامس (الروض: مادة الأندلس).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) نفح الطيب: ١/ ١٢٦.

«الأندلسُ شاميّةٌ في طيبها وهوائها، يمانيةٌ في اعتدالها واستوائها، هنديّةٌ في عطرها وذَكائها.. إلخ».

ومن هذا التشابه بين الإقليم الذي يضُمّ الشام، والآخر الذي يضم الأندلس: استجلبَ أمراءُ بني أميّة كلّ ما يمكن جلبُه ممّا يُزْرع من الأعشاب والنباتات والأشجار المُثمرة وأشجار الزّينة، وقلّدوهم في مظاهر الحياة المُختلفة (كما هو مفصّل في فقرات الكتاب) بل إنّ عبد الرحمن الداخل جلبَ من شجر النّخيل الذي بدأ غريباً في بساتين قرطبة[1]... ثمّ ائتلف.. كما ائتلف أولادُ جيل عبد الرحمن الداخل وحفدتهم... وعاشوا في ظلالِ شامٍ جديدة، أو أندلسٍ شاميّة!

وقد لفت هذا التشابه الكبير بين الشام والأندلس نظر الباحثين، حتى إنّ المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال بنى عليه بعض الأحكام، وفسّر بعض المواقف التاريخيّة، وفي بحث له عن (تبادل السّفارات بين قُرطبة وبيزنطة في القرن التاسع الميلادي)[2] قال[3]:

«المعروفُ أنَّ هذه العلاقات ظلّت [على رغم التعاون الفني والعلمي أحياناً] ضعيفةً أو متباعدة؛ إذْ إن قرطبة عاصمة الخلافة بحكم الأوضاع القائمة قد اهتمت بالغرب أكثر ممّا اهتمت بشرق أورية، وينبغي ألّا ننسى أنّ الأمويين بإسبانية كانوا من سُلالة سورية، أي شرقيّين، حتى إن هذا الأصل كان سبب نُبلهم وأرستقراطيّتهم، التي استطاعوا استغلالها من ناحية أُخرى؛ غير أنّ مصير وطنهم الأوّل، والخلافات التي قامت بين الحكام المسلمين في الأسرة التي خلفَتْهُم، وهم العباسيون، وبين أباطرة المسيحيّين بالقسطنطينية لم يكن لها منذُ البداية غير آثار طفيفة على

(١) وأسهمت أخته (أم الأصبغ) في إطرائه بكثيرٍ ممّا يذكّره بالشّام...
(٢) الإسلام في المغرب والأندلس: ليفي بروفنسال، ٩٣-٩٤.
(٣) المصدر السابق نفسه.

السياسة الشخصية للحكام الأندلسيِّين. وقد ساعد الزمان وبعدُ المكان على زيادة العداء المعهود بين الأمويين بإسبانية وبين خُلفاء بغداد بحيث بدأ الشام يفقدُ في نظرهم صفة (الفردوس المفقود) بعد أن صاروا يحكمون أرضاً لها نفس المميّزات والثراء والخُصوبة والطبيعة التي لا تقلّ عن الشام تنوّعاً وانسجاماً...».

- وبقيت الشّامُ حاضرةً في نفوس كثيرٍ من الأدباء والشعراء، وكان لأصحاب الرحلات المشرقية من الأندلسيّين الأثر في استمرار الارتباط النفسي والرّوحي والثقافي العامّ بالشام؛ يجعلون الأندلس كالشام حيناً، ويفضلونها (بالفخر والكبرياء) حيناً آخر!

وفتح باب الرحلة والرحّالة يُطيل الكلام، لكنّني أكتفي بإشارات فيما سجّله (ابنُ سعيد الأندلسي وعُرِف في المشرق بابن سعيد المغربي)؛ فقد ذكر (غرناطة) في (المغرب في حُلى المغرب)[١]، وقال:

«وأنا أقول: إنها وإن سُمّيت دمشق الأندلس أحسنُ من دمشق (!!) لأنّ مدينتها مُطِلّةٌ على بسيطها متمكّنة في الإقليم الرابع المعتدل مكشوفة للهواء من جهة الشمال، مياهها تنصبّ إليها من ذَوْب الثلج دون مخالطة البساتين والفضلات، والأرحاءُ (الطواحين) تدور في داخلها...» إلخ.

وحين ترجَم في (القِدْح المُعَلّى) لأبي العبّاس أحمد بن محمد بن مفرّج الأموي[٢] قال:

«جالسْتُه بإشبيلية بعد عودته من رحلته...» إلى أنْ قال: «وكان كثيراً ما يُطنبُ في الثّناء على دمشق ويصفُ محاسنها فلا أنفصِلُ عنه إلّا وقد

(١) المغرب في حلى المغرب: لابن سعيد، ٢/ ١٠٢.
ولد ابن سعيد ٦١٠هـ في مدينة غرناطة، وساح في الشرق طويلاً ثم استقرّ بتونس وفيها كانت وفاته ٦٨٥هـ.

(٢) اختصار القدح المعلّى: لابن سعيد، ١٨١.

امتلأ خاطري من شكلها فأتمنّى أن أحُلّ مواطِنها إلى أن بلّغ الله الأمل والأماني قبل المنون...».

ونقل من شعر ابن مفرّج قطعة أولها:

خَيِّمْ بجلّق بين الكاسِ والوترِ في جنّةٍ هي مِلءُ السّمْعِ والبَصرِ
ومَتِّعِ الطّرف من مرأى محاسِنِها تروضُ فكركَ بين الرَّوض والزّهرِ

- وقال في ترجمة أبي الوليد محمد بن أبي عمرو بن الجنّان الشاطبي[1]:

«صَحِبْتُه بمصر، ودمشق، وحلب... وما أُحْصِي كم لقيتُه بأدواح الغوطة الدمشقية راقصاً مع أغصانها، ومترنّحاً في فنون أفنانها..».

- ونقل ابن سعيد من أشعار صاحبه في دمشق وغوطتها.. وقال[2]:

«حَضَرْتُ معه بِجَنّة (بستان) على نهر ثورا من أنهار جلّق، وقد انثنت معاطف النهر، وسال النسيمُ بالدّوح، فقال بأسرع من البرق المتألّق:

يا رعى الله أُنْسَنا بين روضٍ حيث ماء السرور فيه يجولُ
تحسبُ النّهرَ عنده يَتَثَنّى وتخالُ الغصونَ فيه تميلُ»

- وبالمناسبة أقول: إنّ من تقاليد دمشق، والشام، الانتباه إلى الأندلس والأندلسيّين. ويدخل في ذلك المغرب والمغاربة، جرياً على سَنَنٍ قديم متواصل، من تسقّط أخبار تلك الديار، ومن حُسن استقبالهم والاحتفاء بهم. ويذكر الرّحالة كثيراً من هذه العناية، ويلتقط المتابع أخباراً مهمة في هذا الباب. نقرأ في رحلة ابن بطوطة (بيروت ١٠٥-١٠٦):

«وكان بدمشق فاضل من كتّاب الملك الناصر يسمّى عماد الدين

(١) اختصار القدح المعلّى: ٢٠٦.
(٢) المرجع السابق: ٢٠٨.

القيصراني من عادته أنه متى سمع أن مغربيّاً (تقال في أهل الأندلس والمغرب) وصل إلى دمشق بحث عنه وأضافه وأحسن إليه.. وعلى هذه الطريقة كاتب السرّ الفاضل علاء الدين بن غانم وجماعة غيره..».

وكان ابن جبير قد تحدّث عن عناية أهل دمشق والشام بالأندلسيّين والمغاربة وعن ثقة الناس بهم، وكان إماما المالكية حين مرّ ابن جبير بدمشق أخوين أندلسيّين. وقد تجد الموقف غريباً جدّاً حين تقرأ عن درجة احتفاء أهل الشّام بالمقّري التلمساني، وطلبوا منه إسماعهم أخبار الأندلس وأهلها وأدبها.. وكلّفوه تأليف كتاب، فكان كتاب (نفح الطيب..) إلخ[1].

وما تزالُ دمشقُ من أكثرُ بلدان العرب والمسلمين احتفاءً بالأندلس ورجالها وبُلدانها وأخبارها، ومن أكثرها تسميةً بأسماء أندلسيّة: (تسمية المدارس والمحالّ العامة، والشوارع، والمؤسسات، والمكاتب التجارية... وسُمّي حيٌّ مستحدث من أحياء دمشق باسم: (الزّاهرة) مجاراة وصدًى لاسم ضاحية الزاهرة التي أنشأها قريباً من قرطبة المنصور محمد بن أبي عامر حاجب الخليفة الأموي هشام، والاستقصاء يطولُ جداً) والزّاهرة جاءت محاكاةً للزهراء التي بناها عبدُ الرحمن الناصر[2]، ومضاهاة!!.

أسماء بلدان شامية لبلدان أندلسيّة

حين تولّى أبو الخطّار الحُسام بن ضرار الكلبي الأندلس (رجب ١٢٥هـ) كان الخلاف قد بلغ مداه بين الطّوالع السّابقة التي دخلت

---

(١) انظر مقدمة نفح الطيب، ورسالة ابن شاهين الدمشقي إلى مؤلف النّفح يحثه على إنجاز ما وعد من تأليف الكتاب الضخم الموعود عن الأندلس وأهلها..

(٢) وهي التي ذكرها ابن زيدون في قصيدته:

إنـي ذكـرتـك بـالـزهـراء مـشـتـاقـا ....

انظر كتابنا: في الأدب الأندلسي: مادة ابن زيدون، طبع دار الفكر، دمشق.

الأندلس منذ طالعة موسى وبين الذين وفدوا مع بلج بن بشر الذين عُرِفوا بالشاميِّين. وكانت قرطبة قد ضاقت بهم، واستجاب أبو الخطّار لرأيٍ أشار به أرطاس شيخُ أهل الذمة، وفرّق طالعة بلج في نواحي الأندلس مع أصحابها من أهل الذمّة[١].... وقد فرقهم أبو الخطّار على أساس لطيف؛ تخيّر لكل قوم ناحيةً تُشبهُ - من حيث المناظر والبيئة المحيطة بها - الناحية التي أتوا منها من الشرق[٢]: فصار أهل مصر في كورة أكشونبة وباجة وبعض نواحي كورة تُدمِير، وأهل الأردن في كورة ريّة، وأهل دمشق في كورة إلبيرة (وستصبح غرناطة، بعد ذلك، مركز هذه الكورة) وأهل قنّسرين في كورة جَيّان.

وقد يقال (جندُ دمشق، وجند الأردن.. إلخ) بدلاً من (أهل)؛ فقد كانوا جميعاً جُنداً، وكانت لهم مهمّةٌ عسكريّةٌ مع بَلْج بن بشر.

وقد علّق بروفنسال على هذا الانتشار للجُند في البلاد الأندلسية وقال: إنه بهذا الشكل: «تزوّدت المُدن الأندلسيّة بعنصرٍ جديد، وعاش هؤلاء المحاربون ذوو الأصل العربي بإيرادات أراضيهم الشاسعة.. وكان الجزء الأكبر من هذه الأرستقراطية الحربية سوريّاً [شاميّاً]، وقد استطاع بعض الباحثين أن يقول بحق: إن الأسماء الخُرافية التي أطلقوها على قصورهم الحديثة بدلاً من الأسماء الإيبريّة القديمة كانت في نظرهم شارةً من شارات مجدهم التّليد وشعاراً باحتفاظهم بتراثهم»[٣].

لقد بدأت التقاليد الشامية تتسَرّب إلى الأندلس، أو تثبت فيها بقوة وتَوَاصُلٍ، منذ أيام الفتح الأولى، فقد كان في الفاتحين مجموعة من العرب مع طالعة موسى بن نُصير (الحملة التي قصدت إلى الأندلس) يقدّر

(١) تاريخ افتتاح الأندلس: ابن القُوطيّة، ٤٤-٤٥.
(٢) انظر تعليق د. حسين مؤنس على صنيع أبي الخطّار، فجر الأندلس: ٣٥٩-٣٦١.
(٣) الشرق الإسلامي: ١٤.

عددهم بثمانية عشر ألفاً وهناك بضعة آلاف أُخرى وفدت خلال عشرين سنة التالية شيئاً فشيئاً، وموجة أُخرى لا يزيد عددها على عشرة آلاف جاءت في طالعة بلج بن بشر القشيري سنة ١٢٣هـ.

ويقدّر الدكتور حسين مؤنس مجمل العرب الباقين (بعد الحُروب وغيرها) بنحو ٢٥ ألفاً[١].

ولكنّ عدد العرب كَبرَ جِدّاً في عقود قليلة: «بوصول كثير من الجماعات العربية أفواجاً يجذبها النجاح الذي أُتيح لإحياء الدولة الأموية في الطرف الثاني من البحر الأبيض..»[٢].

وبدخول هؤلاء العرب، وغيرهم من البربر، تحولت الأندلس إلى بلد إسلامي عربي الطابع في أقل من قرن من الزمان[٣].

---

(١) فجر الأندلس: ١٢٦-١٢٨.

(٢) الشرق الإسلامي: ١٥.

(٣) انظر تفصيل ذلك في فجر الأندلس: ١٢٨.

عبد الرَّحمن الداخل:
الدّولة، والتقاليد

كان عبد الرّحمن بن معاوية من القلّة التي أفلتت من سُيوف المسوّدة[1] العباسية حين كاد العباسيّون أن يستأصلوا بني أُميّة فقتلوا مَنْ وصلتْ أيدي جُندهم إليهم من رجال ونساء وأطفال[2]. نجا عبد الرحمن من مذبحة (أبي فُطْرُس) التي قتل المسوّدةُ فيها بني أميّة (إلّا مَنْ شَرد). قال ياقوت في مُعجمه عند اسم: نهر أبي فُطرس (على بعد ١٢ ميلاً عن مدينة الرَّملة)، بهِ كانت وقعةُ عبد الله بن علي بن عبد الله بن العبّاس مع بني أُميّة فقتلهم في سنة ١٣٢، قال إبراهيم مولى قائد العبلي يرثيهم[3]:

أفاضَ المَدامعَ قَتْلى كُدَا ... وقَتْلى بِكَتْوَةَ لم تُرْمَسِ
وقتلى بوجٍّ وباللّابتَيْنِ ... بيثربَ هُم خيرُ ما أنفُسِ
وبالزّابِيَيْنِ نُفوسٌ ثوتْ ... وأُخرى بنهرِ أبي فُطْرسِ

---

(١) اشتهروا في التاريخ بالمسوّدة، لكونهم اختاروا السَّواد شعاراً لهم.
(٢) في كتاب (أخبار مجموعة): «وقتلوا النّساء والصبيان، ذبحوا عَبْدَة بنت هشام بن عبد الملك ذبحاً..» إلخ، ص٤٧.
(٣) معجم البلدان: ٥/ ٣١٥.

- لقد كان استئصالاً لقومٍ بأكملهم إلا من نجا كعبد الرحمن...

- وكان في ذاكرة عبد الرحمن وهو يتوجّهُ - فاراً بنفسه - إلى غرب الدّولة الإسلامية توسُّمُ مسلمة بن عبد الملك بن مروان (عمّ أبيه) حين قال لجدّه هشام بن عبد الملك: إنّ هذا الفتى (وكان ابْنَ عشر سنين) هو الذي سَيُجَدّد دولة بني أُميّة في الغَرْب (لا في الشرق) قال عبد الرحمن بعد هذا الخبر: فكان جدّي يُؤثرني ويتعاهدُني بالصّلة والبعثة التي في كلّ شهر[١]. وكان عبد الرحمن يتيماً فمن هنا شدّة رعاية الجدّ هشام له، وحَدْبه عليه، والزيادة في البرّ به.

ولقي من الخطر في إفريقية والمغرب من عبد الرحمن بن حبيب الفهري مثل ما لاقى في المشرق من المسوِّدة، فنجا بنفسه ثانية، وفكّر في الأندلس.

وكانت الأندلس تُعاني من العُزلة بعد نهاية الدولة الأموية وإغفال الدولة العباسية، قال الدكتور سالم:

«وكانت الأندلس[٢] وقتئذ تَموجُ بالفَوْضى والاضطراب بسبب الفِتن والعَصبيّات القبليّة. وهنا لاحتْ لعبد الرحمن بن معاوية بارقةٌ من الأمل، فلابدّ له وهو سليلُ خلفاء بني أميّة العِظام من أن يجد لنفسه وسطَ هذا الصّراع مجالاً يجدّد فيه دولة أجداده. وتملّكه هذا الأملُ تملكاً شديداً، وشرعَ في استغلال هذا الموقف لمصلحته فبدأ من جديدٍ محاولاته التي أخْفَقَتْ في المغرب»... إلخ.

ويبدو أن المعلومات التاريخية، وما يُستفاد من النّصوص الأدبية، تؤيّد ما ذهب إليه ل.بروفنسال من حرص عبد الرحمن الداخل على بناء

---

(١) أخبار مجموعة: ٥٣. يعني الرّاتب الشهري إضافةً إلى ما يصله به.

(٢) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة في قرطبة): ١٧٨.

دولته، وتنظيم المجتمع فيها «على صُورة سورية الأموية»[١] وعلى تشجيع التقاليد الشرقيّة في الأندلس. وقد «سَهّل عليه تحقيق أمانيه الشّبَهُ الجُغرافيّ بين الإقليمين[٢] ذلك التقارب الذي كان مادّةً لكثير من المقارنات الأدبية العديدة، وخاصة في الشعر من حيث الطبيعة بين السهول الأندلسية اللامعة اليانعة، والغوطة المزدهرة التي تقع بقرب دمشق، وبعث الحنين إلى نخيل الواحات السورية[٣] وإلى شجر الحَوْر الذي يُظلّل حدائق نهر العاصي[٤]. وقد احتفظ عربُ الشرق الذين انتقلوا إلى إسبانية [الأندلس] بتقاليد أجدادهم، ولم يألفوا بسرعة الحياة الجديدة في شبه الجزيرة...».

قلت بمناسبة ذكر الحَوْر الذي شغل بال عبد الرحمن:

في متنزهات غرناطة (التي تُشَبّه بدمشق، وتُدعى: دمشق الأندلس) مُتنزّه: حَوْر مؤمّل، وقد ذكره الشعراء والوشّاحون، وفيهم أبو جعفر بن سعيد، فقد نظم موشحة[٥] أولها:

ذَهَّبَتْ شمسُ الأصيلْ فِضَّةَ النَّهْرِ

---

(١) في ترجمة د. الطاهر مكي (الحضارة العربية في إسبانية: ٥٦) أن عبد الرحمن الداخل اهتم «اهتماماً مستمراً ببناء الدولة وإطاراتها الاجتماعية على نفس الصورة السورية خلال الحكم الأموي هناك في دمشق..» إلخ. والمقصد واحد.

(٢) أوردت في إحدى الفقرات كلاماً على إقليم الشام وإقليم الأندلس.

(٣) من المؤكد أن الشام كانت موطناً لزراعة النّخيل، وقد تَقهقرت العِنَاية به جدّاً حتى كأنّه غريب، واسمُ (تدْمُر) الآخر «بالميرا» مأخوذ من معنى النّخيل (الأبلمة). ولنا بحثٌ مطوّل في هذا الموضوع ننشرُه إن شاء الله في (مفردات تراثية)، وقد سبق نشرهُ في مجلة (تراث): أبو ظبي.

(٤) والحَوْرُ مشهورٌ في بلاد الشّام، وهو كثير في الغُوطتين: الشّرقية والغربية، وقد قلّ بشحّ المياه، وضعف الاهتمام بالزّراعة قياساً إلى الأيام الخوالي.

(٥) المُغرب في حُلى المغرب: لابن سعيد، ٢/ ١٠٤-١٠٥.
وانظر مقدمة لسان الدين بن الخطيب على كتابه (الإحاطة في أخبار غرناطة): قبل بدء تراجم الكتاب.

وفيها:

حَبّذا بالحَوْرِ مَغْنى
هي لفظٌ وهو مَعْنى
مُذهِبُ الأشجانِ عنّا
كم دَرَيْنا كيف سِرْنا
ثُمّ في وَقْتِ الأصيلْ لم نكُنْ ندري!

- وقد ذكر شعراء الشّام وغيرهم الحَوْرَ في أشعارهم، واشتهر وانتشر قول أحمد شوقي في إحدى قصائده الشّاميّة[1]:

والحَوْرُ في دُمَّرٍ أو حولَ هامَتِها حُوْرٌ كواشِفُ عن ساقٍ وولْدَانُ

- وفي دراسة للدكتور حسن أحمد محمود، يقول:

«أنشأ عبد الرحمن (الداخل) حكومةً على النّسق الأموي، وكان اتّجاهُه هذا طبيعيّاً، فقد استقى من تقاليد عرفها الأمويون، وطبّقوها، وحقّقت لهم السؤدد نحواً من تسعين سنة، هذه التقاليد الأموية يُطلق عليها: (التقاليد الشاميّة).

وكانت هذه التقاليد تعتمد على أُسس واضحةٍ: على تكوين جماعة من الرجال المُخلصين للدّولة: ينهضون بعبئها في العاصمة والأقاليم، منهم رجالٌ من العرب أو من مَوالي البيت الأموي: يحقّقون أهدافَ البيت الأموي. وقد شهد العصر الأموي في الشّرق جيلاً كاملاً من الإداريّين الأكفياء، والقُوّاد المهرة، الذين نهضوا بالعبء كله، من أمثال: زياد، والحَجّاج، ومسلمة بن مخلد، وقُرّة بن شريك، وموسى بن نصير.

(١) ديوان أحمد شوقي: ١/ ١٦١. ودُمّر والهامة ضاحيتان مشْهُورتان، وهما معدودتان في الغُوطة الغربيّة.

وكان جيل الإداريّين الّذين (أوجدهم) تنظيم عبد الرحمن لا يقلّون كفايةً أو إخلاصاً عن ذلك الجيل القديم..

وعلى كلّ حال، نهض عبد الرحمن بأعباء دولته بنفسه، واعتماداً على أهل بيته الذين استدعاهم، وعَهدَ إليهم بمهام الأمور، وكوّن طوائف (جماعات) من الموالي المخلصين وأكسبهم طابعاً عربياً قرشياً أموياً، وهذا ما يُعرف في المصطلح بـ(التقليد الشامي في الأندلس)».

وتابع د. حسن أحمد محمود عَرْضه لأعمال عبد الرحمن الداخل الداخلية والخارجيّة، وصوّر عمله السّياسي والإداري، وراجع ذلك العمل على ضوء تحليله وانطباعه الشخصي من خلال رؤيته التاريخية والحضارية.

وقد أشار إلى أُمور تدخلُ، فيما نحنُ بسبيله من كلام على التّقاليد الشامية التي انتقلت إلى الأندلس بطبيعة الحال. والانتقالُ التلقائيُ، وبالعمل القاصد الذي ذهب إليه عبد الرحمن، وهو يبني دولةً جديدةً: مؤسَّسةٌ على ما أثلهُ أجدادهُ في الشام وسائر المشرق، وعلى ما بين يديه، وما هو منظورٌ إليه في البلاد الجديدة[1].

- قسَّم عبد الرحمن الداخل الأندلس إلى كُوَر (جمع كورة) وفقاً للنظام الشرقي المعروف[2] مع الاحتفاظ بالخطوط الكبرى للتقسيم الإداري الذي عرفته منذ أيام الرّومان، ولم يغيّر من السياسة الاقتصادية كثيراً، وإن كان قد اتجه إلى تخفيف أعباء الخراج ليتلاءم مع الأوضاع الاقتصادية.

- وسلك عبد الرحمن بنظام الوزارة مسلكاً جديداً، وإن كان يتفق مع النظام الذي ألِفَهُ المشرق في بعض الاتجاهات؛ كان العباسيون يختارون

(١) تاريخ المغرب والأندلس: ٩١.

(٢) تاريخ المغرب والأندلس: د. حسن أحمد محمود، ٩٢.

رجلاً واحداً يفوّضون إليه أمور الإدارة كلها إحياءً للتقاليد الفارسية القديمة[١]، وكان عبد الرحمن يختار طائفة من الوزراء يختص كل واحد فيهم بأمر من أمور الدولة، وكان رئيس هؤلاء جميعاً يسمى الحاجب. وأصبح نظام الحجابة هذا تقليداً جرى عليه الأمويون بعد عبد الرحمن.

- ومتابعةً لجده عبد الملك بن مروان وعمه الوليد بن عبد الملك اهتم بالعُمران وكانت له «قدرة فائقة على التعمير وإنشاء المدن والقُصور والحصون، وهو الذي تطوّر بمدينة قرطبة من مجرد مدينة ريفيّة زمن القوط أو معسكر حربي في عصر الولاة حتى أصبحت حاضرة كُبرى...».

- وأهم منشآت عبد الرحمن الجامع الأموي في قرطبة الذي أقامه على تعديل حَنش الصنعاني للقبلة، وأشرف على هندسته، فقد كان «عمرانيّاً جليلاً ومهندساً بارعاً فهو مصمّم جامع قرطبة الشهير: رتّب أعمدته الكثيرة على شكل يمكّن كلّ مُصَلٍّ من أن يرى الإمام، وقد كان قلب الجامع يبدو وكأنه غابة من النخيل»[٢].

وصار التّشييد والتّعمير، وإتقان ذلك وإخراجه على خير وجه، من تقاليد الأمويّين، وممّن اشتهر بذلك عبدُ الرحمن الأوسط؛ فقد كان يحبّ البناء، وفي عهده أُنشئت مدينة مُرْسِيَة، وقلعةُ ماردة، وقَنْطَرةٌ جديدةٌ على نهر الوادي الكبير، وأُنشئ حصن إشبيلية، ووُسِّع القصر وحُملت إليه المياه من جبال قُرطبة، ووُسِّع جامع إشبيلية، والمسجد الجامع بقرطبة...

وحين ظهرت شخصيات، من حُكّام المناطق، تتمتّع بما يُسمّى اليوم «الحكم الذاتي» ضمن الدولة مثل: ابن حجّاج في إشبيلية اصطنعوا النّموذج الأُموي، فقد أحاط ابن حجاج نفسه بهالة من العلماء والأدباء وشجع العلوم والآداب والفُنون.. وكان ابن عبد ربّه من شعرائه...

---

(١) المرجع السابق: ٩٢.

(٢) تاريخ الأدب العربي: د. عمر فروخ، ٤/ ٨١.

لقد كان إنشاء دولة بني مروان الجديدة في الأندلس إحياءً ونقلاً للدولة من الشّام في المشرق إلى الأندلس في المغرب، وقد نقل عبدُ الرحمن شكل الحُكم وأُسلوبَهُ، وتبع ما كان عليه قومُه في الشام في إدارة الحكم، وفي ضبط الأُمور، وفي الاستعانة بالوُزراء والأعوان، وفي الاختلاط بالناس، وتحسّس قضاياهم.

ولكنَّ عبد الرحمن اكتفى من ألقاب الحُكم باسم (الأمير)، ولم يتلقّب بالخلافة واستمر الأمر على ذلك مع أبنائه وحفدته إلى أن تلقب عبد الرحمن الناصر بلقب الخلافة سنة ٣١٦هـ بعد أن ضَعُفت الخلافةُ العباسيّة من جهة، وتلقب الحاكم الفاطمي في المغرب بلقب الخلافة، وللدكتور أحمد مختار العبادي تعليلٌ وتفصيل لهذه القضية[١].

وفرّق د. العبّادي بين نظريّات الخلافة الثلاث؛ ووصف طبيعة الحكم الأموي المختلفة عن الاثنتين الأخريين، قال[٢]:

«يلاحظ أنّ نظام الخلافة الأموية في الأندلس كان نظام ملك يقوم على التّوريث، ويستند إلى السياسة أولاً ثم إلى الدين ثانياً، فهي تختلفُ تماماً عن خلافة الإسلام الأُولى أيام الخلفاء الراشدين التي كانت تقومُ على الشّورى والانتخاب. على أنّنا مع ذلك إذا قارنّا خلافة الأندلس بالخلافات الأُخرى المعاصرة لها كخلافة العباسيين أو الفاطميين فإننا نجد أنّ الخلافة الأندلسيّة كانت أكثر ديمقراطية منها. فالخليفة العباسيّ كان يحكم (بتفويضٍ من الله) وقد صرح بذلك أبو جعفر المنصور حينما قال: إنما أنا سلطان الله في أرضه.. وكذلك كان الخليفةُ الفاطمي يرى نفسه إماماً معصوماً من الخطأ، ولا يُسأل عمّا يفعل لأنه وارثُ العلوم اللَّدُنيّة بما فيها من سِرٍّ مكنون، وغامِضٍ مصُون من خفايا الكون.

---

(١) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس: ٤٢-١٣٤.

(٢) المرجع السابق: ٦١-٦٢.

وهذه القداسةُ لا نجدُها في الخلافة الأمويّة الأندلسيّة؛ فالخليفة إنسانٌ عاديّ قد يُخطئ أو يصيب، والناسُ أحرار في نقده، وإن استطاعوا عَزْلَهُ عَزلوه...» انتهى.

امير اندلسي يسيرُ بسيرة عُمر بن عبد العزيز

كان هشام بن عبد الرحمن الداخل الأمير الثاني لدولة بني أمية الفتية في الأندلس، اختاره أبوه بدلاً من سُليمان (وقد كان سليمان هو كبير إخوته) للمزايا الكثيرة في هشام، ممّا يؤهله ليكون المؤتمن على المسلمين وأمورهم.

ونقل المقري في تاريخه كثيراً من أخباره في حركة الجهاد التي كان يتابعها، وفي إدارته لشؤون الدولة ورعايته الرعية، ومراقبته الولاة والعمّال في أنحاء البلاد، وقال[1]:

«كان هشام بن عبد الرحمن يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز، وكان يبعث بقوم من ثقاتهِ إلى الكُوَرِ، فيسألون الناس عن سِيَرِ عُمّاله، ويُخبرونه بحقائقها، فإذا انتهى إليه حَيْفٌ من أحدهم أوقع به، وأنصفَ منه، وأسقطه، ولم يستعمله (في عملٍ) بعد ذلك».

ونوّه به مؤرخو الأندلس، وفيهم صاحب (أخبار مجموعة)، وقد ترجم له، وأطال في ترجمته، وفيه[2]:

«كان الأمير هشام بن عبد الرحمن خيّراً فاضلاً جواداً كريماً، مع حُسن سيرته في رعيّته، وتحصينه لثغوره».. «وكان هشام يَصُرّ الصُّرَر

(١) نفح الطيب: ١/ ٣٣٦-٣٣٧.
(٢) أخبار مجموعة: ١٢٠-١٢٤.

بالأموال ويبعث بها في ليالي المطر والظُّلمة إلى المساجد فتُعطى من وُجِدَ فيها؛ يريد بذلك عمارة المساجد..»[١].

وقال أيضاً في هشام: «لم يُقْتَل أحدٌ من جنده في شيءٍ من ثغوره أو جيوشه إلا ألحق ولَدَهُ في ديوان أرزاقه»..

وفي نفح الطيب خبر يتصل بما نحن بسبيله من ذكر ورع هشام، ومجاراته أهل الصلاح؛ حتى قيل فيه إنه يذهب مذهب عمر بن عبد العزيز. وقد كان عمر بن عبد العزيز ﷺ أهلاً لأن يُقتدى به في الحكم، وسياسة أمور الناس، والترفع عن الدنيا، والاكتفاء من عرضها بالقليل.

قال[٢]: «لمّا ولي هشام أشْخَصَ (أحْضر) المنجّم المعروف بالضبيّ من وطنه بالجزيرة الخضراء إلى قرطبة - وكان في علم النجوم والمعرفة بالحركات العلويّة بطليموس زمانه حذقاً وإصابةً. فلما أتاه خلا به وقال له: يا ضَبّي! لستُ أشك أنه قد عناك من أمرنا إذْ بلغك ما لم يُدّع التجديد فيه، فأنشدك الله إلا ما أنبأتنا بما ظهر لك فيه..» قال الخبر إن الضبي تلكأ... ثم قال له هشام: «إن الذي سألتك عنه جِدٌّ منّي، مع أني والله ما أثق بحقيقته، إذ كان من غيب الله الذي استأثر به، ولكني أحبّ أن أسمع ما عندك فيه فالنفس طُلَعَةٌ... فقال: اعلم أيها الأمير أنه سوف يستقر ملكك، سعيداً جَدّك، قاهراً لمن عاداك إلّا أن مدّتك فيه في ما دل فيه النظر تكون ثمانية أعوام أو نحوها. فأطرق الأمير ساعةً ثم رفع رأسه وقال: يا ضبّي! ما أخوفني أن يكون النّذير كلّمني بلسانك، والله لو

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٨].

(٢) نفح الطيب: ١/ ٣٣٤-٣٣٥.

أن هذه المدّة كانت في سجدة لله تعالى لقلّتْ طاعةً له... وزهد في الدنيا والتزم أعمال البِرّ».

- وقول هشام: «ما أخوفني..» يريد: إنّك تضربُ في أمور الغيب، والغيب لا يعلمه إلّا الله، ولكني أخاف أن يكون ما قلتَهُ قد جاء على لسانك تحذيراً لي. إنه «النّذير» الذي أراد تنبيهي فكان ذلك على لسانك... وقول الأمير: «أخافُ» أي لعلّ الأمر كان كذا وكذا...

وكان هشام مصلحاً[1]، محبّاً لبناء المساجد، وتعمير المباني العامة، وهو الذي أكمل سقائف جامع قرطبة، وأسس منارته (مئذنته) القديمة، وبنى الميضأة في صحنه.

وكانت قنطرة قرطبة (جسرها الكبير) قد تهدّمت في حياة عبد الرحمن الدّاخل بفعل السّيل، فنظر هشام في بنيانها، وأنفق في إصلاحها أموالاً عظيمة، وتولّى بناءها بنفسه، وكان يُعطي الأجرة للعمال بنفسه، وذكر ابن وضاح أنه بعد أن أتم بناءها سأل يوماً أحد وزرائه عمّا يقولُ أهلُ قرطبة في القنطرة، فذكر له أنهم يقولون إنّه ما بناها إلّا ليمضي عليها إلى صيده وقنصه، فأقسمَ ألّا يجوز عليها إلا لغزوٍ أو مصلحةٍ، وبَرَّ بيمينه.

وفي أخباره على المنهج الذي اختاره مماثلةً لآبائه وأجداده، واقتداءً بعمر بن عبد العزيز ﷺ أنه:

«كان لبعض رجال هشام - من خاصّته - خصومة في دار عند القاضي مصعب بن عمران، فسجّل عليه القاضي فيها (حكم لصالح خصمه) وأخرجه منها، فنهض الرجل إلى هشام وقال له: إن القاضي سجّل عليّ في داري التي كنتُ أسكنها، وأخرجني عنها! فقال هشام: وماذا تريد

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم: ٢١٩، وانظر: البيان المُغرب لابن عذاري: ٢/٦٦.

مني؟ والله لو سجّل عليَّ القاضي في مقعدي هذا (كرسيّ الحكم والإمارة) لخرجْتُ عنه!..».

- علّق في البيان المغرب بعد الخبر: «انقياداً منه للحقّ رحمة الله عليه»[١].

- وقال د. أحمد فكري وهو يعرّف به: «كان هشام على جانبٍ كبيرٍ من الورع والتّقوى، وامتاز عهدُه بالهدوء النسبي والاستقرار، ورضى الرّعية عنه، حتّى إنّ الناس كانوا يسمّونه هشام الرّضى، ويمتاز عهده باستئناف الجهاد ضدّ الإسبان والفِرنجة..» إلخ[٢].

خصائص الحكم الأموي في المشرق والأندلس

وقف الإمام أبو محمد بن حزم عند خصائص الحكم الأموي في المشرق إلى انقضائه، وظهوره ثانية في الأندلس، في إيجاز شديد ودقة[٣] وقال إنها كانت: «دولة عربيّة، لم يتخذ مُلوكها قاعدةً لأنفسهم إنما كان سكنى كل أمير منهم (أو امرئٍ منهم) في داره وضيعته اللتين كانتا له قبل الخلافة[٤]؛

- ولا أكثروا احتجان الأموال[٥]؛

- ولا بناء القصور[٦]؛

---

(١) البيان المغرب: ٢/ ٦٦.

(٢) قرطبة في العصر الإسلامي (تاريخ وحضارة): مؤسسة شباب الجامعة الإسكندريّة، ٣٦-٣٧.

(٣) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ٢/ ٣٩-٤٠.

(٤) هذا يفسّر وفاة عدد منهم خارج دمشق.

(٥) احتجن مال غيره: اقتطعه وسرقه، واحتجن المال (مطلقاً) جمعه.

(٦) إلا ما كان من هشام بن عبد الملك. وكانت له أغراض شتى (انظر الكلام عليه في أثناء فقرات الكتاب).

- ولا طلبوا مخاطبة الناس بالتّمويل والعبودية والمُلك[١]؛

- ولا تقبيل أرضٍ، ولايدٍ، ولا رِجْل[٢]؛

إنما كان غرضهم الطاعة الصحيحة، والتّوليةُ والعَزْلُ في أقاصي بلاد الدنيا[٣]، فكانوا يعزلون العُمّال ويُوَلّون الأُخر في السِّند والهند، وفي خُراسان وفي أرمينية، وفي العراق، وفي اليمن، وفي المغرب الأدنى، والأقصى، وبلاد السُّوس[٤]، وبلاد الأندلس، وبعثوا إليها الجيوش، وولّوا عليها من ارتضوا من العُمّال[٥] وملكوا أكثر الدنيا؛ فلم يملك أحدٌ من ملوك الدنيا ما ملكوه من الأرض إلى أنْ تغلّب عليهم بنو العباس

(١) - التّمويل أن يقال لأحدهم: يا مولاي.
- والعبودية أن يقال لأحدهم: يا سيّدي! أو أنا عبدك في طاعتك!..
- والملك: أن ينادى الخليفة بلقب المَلِك أو ما يُشبهه. ولهذا اعترض عبد الملك بن مروان على قول عُبيد الله بن قيس الرقيات وهو يمدحُه:
يعتدل التاج فوق مفرقِهِ على جبينٍ كأنه الذَّهَبُ!
وقال له: ما زدتَ على أنْ جعلتني عِلْجاً من عُلوج الرُّوم، واستحْسَن قوله في مصعب بن الزبير:
إنّما مُصعبٌ شهابٌ من الله تَجلّتْ عن وَجْهه الظَّلْماءُ
ملكهُ ملكُ عِزّةٍ ليس فيهِ جَبروتٌ ولا بهِ كِبرياءُ!
- الديوان: ٤، و٩١-٩٢.

(٢) كان من المنافقين (في التاريخ) مَنْ يُقبّلُ الأرض بين يدي الحاكم، واليد، والرجل!!

(٣) يعني كان أمر الخليفة الأموي في دمشق نافذاً من أقصى الأرض عند الصين إلى أقصاها في الأندلس.

(٤) بلاد السوس في جبال أطلس في المغرب (ياقوت: سوس، سوسة).

(٥) يريد بالعُمّال كل من تولّى عملاً للأمويّين، والسياق لأصحاب الولايات. وكان خليفة دمشق يولّي ويعزل برسالة يبعث بها، فينْفُذُ الأمر الصّادر عن الخليفة. ولم يسجّل التاريخ اعتراض والٍ أو قائد أو قاض أو سواهم على الأوامر الخليفية في أنحاء الدولة الأمويّة.

بالمشرق، وانقطع بها مُلكهم، فسار منهم عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس وملكها هو وبنوه، وقامت بها دولة بني أميّة نحو الثلاث مئة سنة، فلم يكُ في دول الإسلام أنبل منها، ولا أكثر نصراً على أهل الشِّرك، ولا أجمعَ لخلال الخير وبهدمها انهدمت الأندلس إلى الآن، وذهب بهاءُ الدنيا بذهابها.

قال أبو محمد (يعني ابن حزم فالكلام متصل): وانتقل الأمر بالمشرق إلى بني العباس فكانت دولتهم أعجمية سقطت فيها دواوين العرب، وغلب عَجَمُ خراسان على الأمر، وعاد الأمر ملكاً عضوضاً كسرويّاً..» إلخ.

قلت: ينسحب ما قاله الإمام ابن حزم عن خلفاء بني أمية في دمشق على مَنْ أحْيا دولتهم في الأندلس في كلا العهدين: عصر الإمارة (١٣٨-٣١٦هـ) وعهد الخلافة (٣١٦-٤٢٤هـ).

ولم تتغيّر رسوم دار الخلافة في قُرطبة منذ إعلان الخلافة عن الإطار العام الذي رسمه ابن حزم عن خلافة دمشق في معاملة الرعيّة، والخضوع لأحكام الشريعة ونفاذ أحكام القضاة على الأمراء والحكّام والولاة.. على أنّ عبد الرحمن الناصر (الثالث) اتخذ من هيئة الحكم وهيبته ما تقتضيه الحال عند ملوك الأعاجم المُجاورين (في شمال الأندلس) وغيرهم من الوافدين عليه من سائر أوربة..

ولنضف شهادةً معاصرةً لباحثٍ إسبانيّ:

حضارة الحريّة والإنسانية

في بحث بعنوان (المكنون الإسلامي للأندلس) لأنطونيو أبارث سوليس يقول في سياق كلامه:

«إن الأندلس قد عاشت عصر الازدهار الثقافي العربي الثَّريّ والذي

توّجَتْهُ خلافَةُ عبد الرّحمن [الناصر] فالطب والفلسفةُ واللاهوت وفُنون الزّراعة والتعدين والملاحة وعلم الفلك لاقت دفعاً من بلاط الخلافة، وساهمت في إطاره الدّيانات الثلاث في بناء فلسفة اجتماعية تميّزت بإنسانية معارفها مقابل ميتافيزيقا الشمال المُقفرة..

إنّ الأندلس تُعرَفُ معرفةً مبهمةً لكنّها فعّالة، بأنّها كانت مركز ثقافة كونيّة، وُلدت في كنَفِ حكام انتشلوها من عبودية القُوط الغربيّين القاسية كي يتكاملوا معها إلى حدّ أنّهم منحُوها سَجِيّتها المميزة مع قيام خلافة الأمويّين»[1]...

تذييل: إضافة إلى مقالة ابن حزم، وتذييلاً عليها في إعراض الأمويّين في المشرق وفي الأندلس عن اتخاذ مظاهر المُلك وعُنجهيّة الحاكم، وعن أخذ النّاس بتقبيل الأيدي والانحناء (كالركوع والسجود لهم) وامتناعهم من ذلك وأشباهه، أورد خَبرين جاءا مُتواليين في الباب التاسع من التذكرة الحمدونية[2] وعنوانه: «في التواضع والكِبْر والخُيلاء والعُجب».

---

(١) أيام الثقافة الإسبانية في دمشق: ترجمة رفعة عطفة، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٣، ١٤٩.

(٢) التذكرة الحمدونية: لابن حمدون محمد بن الحسن بن محمد بن علي، ٣/ ١١٠.
- وأورد المؤلف في آخر الباب هذا البيت:

يا قُبْلةً ذهَبتْ ضياعاً في يَدٍ ضربَ الإلهُ بَنانَها بالنِّقْرسِ!

والنّقرس داء يصيبُ المفاصل ويؤذي المريض بها ألماً شديداً. وأحملُ الشطر الثاني على الدُّعاء. فالشاعر يقول إن الذي قبّل يدَ ذلك الرّجل (ذا الأهميّة؟) لم ينله من تقرّبه إليه بالقُبلة شيء. حرمه ممّا أمّل، فهو لهذا يدعو على تلك اليد بالنّقرسِ!!

والهَلُوع: كثير الهلع، السّريعُ إليه، و: هشام بن عبد الملك لم يَرْضَ لمواطنه الهَلَعَ ولا الجزَع.

والخبران هما بنصّيْهما:

١- «دخل عقال بن شبة على هشام بن عبد الملك وأراد أن يُقَبّل يده فقال له: لا تَفْعَل! فلم يفعل هذا من العرب إلّا هَلُوع، ومن العجم إلّا خَضُوع!

٢- ولما أفضت الخلافة إلى أبي العباس وفَدتْ عليه قريش، فَأُمِروا بتقبيل يده حتى دخل إبراهيم بن محمد العدوي فقال: يا أمير المؤمنين، لو كان تقبيل اليد يزيدُ في القُرْبَةِ لأخذتُ بحظي منه، وإنك لغنيٌّ عمّا لا أَجْرَ لك فيه، وفيه منقصةٌ لنا. فقارَّه ولم ينقصه من حُظوظ أصحابه» انتهى.

- و«أبو العَبّاس» هو أبُو العَبّاس السّفّاح أوّل حكام الدولة العَبّاسيّة.

إمام أهل الشام (في الفقه)
إمام أهل الأندلسِ...

كان الأمير شكيب أرسلان قد عَثر على مخطُوطة بعنوان (محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي)[1] ﷺ؛ فحقّقها ونشرها[2]، وقدّم للكتاب، وهو رسالة (كتيب لطيف الحجم)[3]. وكان في تقديمه تعريفٌ بالإمام الأوزاعي، وبمكانته في الفقه والعِلم، وبمذهبه الفِقهي.

وفي مقدّمة أ. أرسلان من تحقيقه في الأوزاعي، وعلمه ومذهبه، ومكانته في علماء زمانه وفقهائهم عدد من الأمور[4]:

- كان الإمام الأوزاعي من الطبقة الأُولى في مُجتهدي الإسلام، لا يتأخر مكانه عن مكان الأئمّة الأربعة؛ أبي حنيفة النعمان، ومالك بن

---

(١) قدّر المحقق أنّ الكتاب لمؤلف عاش في القرن التاسع، وأن الاسم الذي ورد في آخر المخطوطة: زين الدين بن تقي الدين الخطيب هو الناسخ من أهل القرن الحادي عشر الهجري.

(٢) طبع في القاهرة بمطبعة عيسى البابي الحلبي. وأرّخ المحقق مقدّمة كتابه في: ٢٠ ربيع الأول ١٣٥٢هـ.

(٣) جاء في ١٦٦ صفحة منها ٤٥ صفحة للمقدّمات (من القطع المتوسّط).

(٤) انظر الصفحات ٤-٢٤.

أنس، ومحمد بن إدريس الشافعي، وأحمد بن حنبل رضي الله عنهم جميعاً.

- كان الأوزاعي إمام أهل الشام بإجماع المؤرخين، وتبعاً لانتشار مذهبه في الشام انتشر في الأندلس. ويقال إن أهل الشام لبثوا يعملون بمذهب الأوزاعي في الفقه نحواً من مئتين وعشرين سنة إلى أن غلبَ عليهم مذهب الشافعي، وإن أهْلَ الأندلس لبثوا يعملون به إلى زمن الأمير هشام بن عبد الرّحمن الداخل[1]، حين غَلب مذهبُ الإمام مالك على تلك الدّيار، وذلك في أوائل المئتين للهجرة.

- كان الأوزاعي عالماً عاملاً يطبّق العلم بالعمل.. وكان ممّن يهمّه أمر الأمة بأجمعها، وكان يعملُ بالحديث الشريف: «عدلُ ساعةٍ خيرٌ من عبادة ألف شهر». ومن أجل هذا كان الإمام مالك يقول عن الأوزاعي إنه يصلح للإمامة، وكان الإمام أبو إسحاق الفزاري يقول: الأوزاعي رجل عامّة، ولو خُيرت لهذه الأمة لاخترت لها الأوزاعي؛ أي إماماً وخليفةً. وكان يتعرض للسياسة العامة، وينصحُ للملوك والخُلفاء ويُغْلِظُ لهم القول إذا رأى من أعمالهم ما يضرّ بالأمّة..[2].

- ويذكُر له المؤرّخون والعُلماء رسالته الشديدة إلى: صالح بن علي العبّاسي (والي الدولة العباسية) التي وَبّخه فيها على شدّته في معاملة نصارى لُبْنان، ومُحاورته مع عبد الله بن علي العباسي حين تولّى الشام بعد انقضاء دولة بني أمية، وإعماله السّيف فيهم دون أن يكونوا مقاتلين أو صائلين أو مُخالفين، وأصابت سيوفه الرجال والنساء والأطفال[3].

---

(١) إن تمكّن مذهب الإمام مالك في الأندلس كان أيّام الحَكم بن هشام.

(٢) ترجم له الذّهبي (سير أعلام النبلاء): ٧/ ١٠٧، وفي الحاشية ثبت مطوّل بمصادر ترجمته.

- وخبر الفزاريّ في السّير: ٧/ ١١٣.

(٣) الخبر في تاريخ ابن عساكر: ١٠/ ٤٨ ب-٤٩أ، نقله في حاشية السير: ١٢٣، =

والأوزاعيّ هو: عبد الرحمن بن عمرو البَيْرُوتي؛ ولد سنة (٨٨هـ) ثمان وثمانين وتوفي سنة (١٥٧هـ) سبع وخمسين ومئة. وحلّاه الذهبي في (سير أعلام النبلاء) بشيخ الإسلام وإمام أهل الشام.

- ولد الأوزاعي في بعلبك وتوفي في بيروت، وضريحُه مشهور.

- وكانت صنعتُه الكتابة، وكان أُسلوبه راقياً عالياً يتطامَنُ دونه كتّاب زمانه. قال كاتب أبي جعفر المنصور: كانت تردُ على المنصور كُتبٌ من الأوزاعي نتعجّب منها، ويعجزُ كتّابهُ عنها..[1] إلخ.

- وعلل بعضُ المؤرخين سيادةَ مذهب الأوزاعي في الأندلس ثم انتقالهم إلى مذهب مالك، وذكروا في ذلك أسباباً نوجزها:

١- أن (الحياة الدينية) في الأندلس في المدّة الأُولى كانت متأثرةً ببلاد الشّام، فقد ساد مذهب الإمام الأوزاعي إمام الشام، وكان الأوزاعي من المجاهدين المُرابطين في مدينة (بيروت) ضدّ العدو البيزنطي. ومن هنا: «كان مذهبه يركّز على التشريعات الحربيّة، وأحكام الحرب والجهاد، وكانت هذه الأُمور تناسبُ وضع أهل الأندلس في الفترة الأولى، فقد كان وضعُهم قائماً على الحرب والجهاد، ولهذا اعتنقوا مذهب الأوزاعي»[2]. وكان من أشهر تلاميذه في الأندلس صعصعة بن سلام الشامي (توفي ٢٠٢هـ).

٢- تَتَلْمذَ عددٌ من الأندلسيّين للإمام مالك في المدينة المنورة فأخذوا ونقلوا مذهبه إلى الأندلس من وقت مبكر. وكان أول من أدخل (الموطأ)

= وقد ردّ الأوزاعي على أسئلة العباسي في دماء بني أمية التي أزهقوها ظلماً وأموالهم التي أكلوها باطلاً، والخبر في كتاب الذهبي مُفَرَّقاً في ترجمته.

(١) سير أعلام النبلاء: ٧/ ١١٥.

(٢) تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس: ١٠٦.

للإمام مالك إلى الأندلس شبطون (زياد بن عبد الرحمن اللّخمي المتوفّى نحو ٢٠٤هـ) وعنه أخذ يحيى بن يحيى اللّيثي الذي لقبه مالك بـ(عاقل الأندلس).

وأمّا يحيى فلم يقبل تولّي القضاء، ولكنّه كان ثقةً عند بني أمية فكان هو الذي يُشير بأسماء القضاة ويُرشحهم لذلك قال ابنُ القوطية[١] في أخبار الأمير عبد الرحمن الأوسط بن الحكم إنه «كان يلتزم من إعظام يحيى بن يحيى وبِرّه ما لا يلتزم الابنُ البارّ للأب الحاني، وكان لا يولّي القضاء أحداً إلا عن رأيه».

- وهكذا بثّ هؤلاء فقه مالك في الأندلس.

- وقد قال ابن حزم[٢]: «مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان؛ مذهب أبي حنيفة.. ومذهب مالك عندنا بالأندلس فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان، مقبول القول عند القضاة. وكان لا يلي قاضٍ في أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومَنْ كان على مذهبه...».

٣- ورُوِيَ ثناءُ الإمام مالك على الأمير هشام بن عبد الرحمن لكثرة ما سَمِعَ عن مآثره وأخلاقه. قال في نفح الطّيب[٣]: «ولمّا وَصفَه زيادُ بن عبد الرحمن - أي الشهير بِشَبَطُون - لمالك بن أنس قال: ليتَ أنّ الله تعالى زَيّن مَوسِمَنا بمثل هذا» والخبر في: تاريخ افتتاح الأندلس[٤].

---

(١) تاريخ افتتاح الأندلس: ٨٠.
- وانظر: نفح الطيب: ٣/ ٢٣٠، وفيه «في دولة الحكَم بن هشام.. انتقلت الفتوى إلى رأي مالك بن أنس وأهل المدينة، فانتشر علم مالك ورأيه بقرطبة والأندلس جميعاً بل والمغرب وذلك برأي الأمير الحكم واختياره».
(٢) نفح الطيب: ٢/ ١٠.
(٣) نفح الطيب: ١/ ٢٣٧.
(٤) ٦٥.

ومن هنا قيل إنّ أوّل مَيْلٍ إلى فتحِ الأندلسِ مجالاً لمذهب مالك كان من ثمّة، من أيّام هشام الرِّضى.

٤- وقول آخر، وهو أنّ عقلية أهل الأندلس كانت تغلبُ عليها نزعة أهل الحديث، ولهذا اعتمدوا أوّلاً على مذهب الأوزاعي، وهو من أنصار مدرسة الحديث، ثم اعتمدوا بعد ذلك على مذهب مالك الذي يسير في هذا الاتجاه، ويُعرف أصحابه بأهل الحديث[1].

(١) تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس: ١٠٨.

في تقاليد اللغة العربية

ا- السِّيَاسَةُ اللغوية: عربيّة وتعريب

معروفٌ، مشهورٌ عناية الدّولة الأموية باللغة العربيّة. لقد واجهت بعد استبحارِ الفُتوح ودخول النّاس في دين الله أفواجاً مشكلة ثبات اللّغة عند أهلها وقد اختلطوا بالنّاطقين بغير العربية؛ ومشكلة تأهيل هؤلاء الكثرة العظيمة الذين دخَلُوا في الإسلام وصاروا في حاجةٍ إلى تعلّم دقيق وسريع للغة العربيّة.

والمُلاحظات الباقية من خلفاء بني أميّة وكبار رجالهم للمعلّمين والمؤدّبين تدلُّ على تَنَبُّههم لهذه القضية البالغة الأهميّة فبدؤوا بأنفسهم وبأولادهم، وسَعَوا لتثبيت اللغة صحيحةً سليمةً عند أبناءِ العرب أنفسهم، وعند الوافدين المتعطشين إلى معرفتها فإتقانها.

والإصلاحات التي جرت في أيّامهم على ترتيب الحُروف الهجائية وإعجامها (نقطها) معروفة. ولمّا كَثُرَ الخطأ واللحن انبرى اللغويون والنحويون لذلك من وقت مبكر (في القرن الهجري الأول): «فقد أخذت تتجرّد جماعةٌ من العلماء وخاصّة في البصرة لتنقية العربيّة ممّا دخلها من فساد، وكان بعضُ هؤلاء العُلماء يتعرضُ لفصحاء الشعراء ينقُدهم نقداً

نحوياً حتى لو اضطرتهم القافية إلى ذلك..»[١].

وقد عرَّبت الدّولةُ الأمويّةُ الدّواوين، وضربت النقد موشّىً بالعبارات العربية لأوّل مرة، وأنشؤوا دار الطّراز لكي يكون كلُّ ما يخصُّ الملابس وما يُكتب عليها عربياً.

وأكثر خلفاء بني أميّة: نظموا الشّعر، وفيه شعرٌ عالٍ، وألقوا الخطب ارتجالاً، وكان عبد الملك من الخطباء المشهورين.

وقد انتقلت هذه التقاليد اللغوية، والعناية بتثبيت اللغة الفُصحى وتمكينها من الشام إلى الأندلس، وكان يُخشى على العربيّة في الأندلس ذلك القطر البعيد المنقطع، والذي لا يتكلّم أهلُه القدامى العربيّة، ولا يعرف لُغَيّةً من الأعرابيات (كالحال في الشّام من شيوع السّريانية عند النصارى والعبرية عند اليهود). واللافتُ للنظر حقّاً أنّ المستعربين من نصارى الأندلس، وإن لم يسْلِمُوا، أحبُّوا العربية وتعلّموها، وجعلُوها لغتهم وكتبُوا بها ونظموا أشعارهم.. ما يدل على نجاح الأندلسيّين، وعلى رأسهم الحُكام الأمويّون في المهمّة اللغوية نجاحاً عظيماً.

وفي كتاب: (تاريخ الفكر الأندلسي) ذكر المُستشرق بالنثيا أنّ هؤلاء المستعربين: «كانوا يُؤثرون استعمالَ لغة العرب، وأسماءَهم وأزياءهم، ويجتهدون في أن يأخذوا الطّابع الإسلامي في كلّ مناحي حياتهم. ولا يَجْهَلُ أحدٌ حسراتِ (آلبرو القرطبي) وهو يتحدَّث بجلاء عن ولع نصارى الإسبان بالأدب العربي...» وكان مما نقله من كلام آلبرو: «إنّ الموهوبين من شبّان النّصارى اليوم لا يعرفون إلا لغة العرب وآدابها، ويُقْبِلُونَ عليها في نَهَم، وهم يُنفقون أموالاً طائلةً في جمع كتبها..» إلخ[٢].

---

(١) تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي: د. شوقي ضيف، ١٧٥.

(٢) تاريخ الفكر الأندلسي: ٤٨٥-٤٨٦.

وواضح أنّه كانت ثمة سياسَةٌ أمويّة (رسميّة) في هذا الموضوع. لقد كان تعريبُ الأندلس عاملاً مُهمّاً في شد الأواصر وتنمية العلاقات بين أفراد المجتمع الأندلسي الذي تعدّدت فيه الأعراق والأديان واللهجات المحلية واللغات. ومن هنا سادت اللغة العربية، وكانت هي لغة الدواوين، ولغة التعامل والوثائق، ولغة التعليم، ولغة الشّعر الوحيدة (أمّا الزجل وكان بالدارجة الأندلسية فلم يظهر إلا متأخراً في القرن الخامس تقديراً).

وفي أخبار هشام الرّضى (بن عبد الرحمن الداخل) ما يدلّ على سياسة الدولة فيما يخصُّ اللّغة العربيّة باعتبارها لغة الأمة، ولغة الدّولة، و(اللغة الرسمية) كما نقول اليوم.

ففي عصر هشام: «اتخذت السّياسة الأمويّة إجراءً يشهدُ بِبُعْدِ نظرها إذْ جعلت العربيّة لغة التّدريس في معاهد النصارى واليهود (وهذا بالطبع: مع سيادة العربية في التدريس العام للمواطنين كافة). وكان لذلك الإجراء بالرغم من بساطته أثرٌ عميقٌ في التقريب بين أصحاب المذاهب المختلفة، وفي بثّ روح التفاهم والوئام بينها، ولاسيّما بين المسلمين والنصارى. وكان من أثره أيضاً أنْ كثُرَ اعتناق النصارى للإسلام بعد أنْ وقفوا على أصوله وتفاصيله، وقرّبتْ مسافةَ الخُلْفِ بينهم وبين الفاتحين. ولم يكن ذلك بعيداً عن غاية السياسة الأموية»[1].

ويبدُو أن الأمير هشاماً أصدر بياناً (أو منشوراً) بضرورة تعميم اللغة العربية على المُستعربين الذين يشاركون المسلمين في مدارسهم، ثم أصدر بعد ذلك بمدّة منشوراً عامّاً إلى السكان جميعاً «بضرورة تعلم اللغة العربية لتكون اللّغة الرسميّة»[2].

---

(١) النصّ للأستاذ محمد عبد الله عنان في: دولة الإسلام في الأندلس ١/١: ٢٢٩، وقد رجع إلى دائرة المعارف من كلمة لـ: Scott، والعبارة لعنان.

(٢) قرطبة في التّاريخ الإسلامي: ٨٩-٩٠.

ب- من التقاليد الفنيّة: الشعر

ولا نتحدث عن شاعر معيّن، إنه الشعر العربي الذي هو عُرضةٌ لكلّ عربي موهوب، مُتقن لهذا الفن. وإنما الإشارة إلى استرسال الشِّعر على ألسنة كثيرين من خُلفاء بني أمية ورجالهم في المشرق، واسترساله - بغزارةٍ أحياناً - عند أمرائهم وخُلفائهم وعددٍ كبيرٍ من رجالهم ونسائهم في الأندلس... وكأنّ الشعر ممّا ينتقلُ من جيلٍ إلى جيل، ويرحَلُ مع أصحابهِ من بيئة إلى بيئة..

ولم يكن قول عبد الرحمن الداخل[1]:

يا نخلُ أنْتِ غريبة مثلي في الغَرْب نائيةٌ عن الأهْلِ

هو أوّل ما أنشد من الشّعر في حياته، إنّه شعرٌ حسن، صدر عن شاعرٍ متمكّن، بين يديه أدواتُ الفن والصَّنعة.

وقد بقي من أشعار الأمويّين في الشرق قدرٌ كبيرٌ جُمِعَ منه:

- ديوان معاوية ﷺ.
- وديوان يزيد بن معاوية بن أبي سفيان.
- وديوان الوليد بن يزيد.
- ومع ضياع كثير من أشعار الأمويّين في الأندلس فقد بقي في كتب التراجم وكتب الأدب والاختيارات قدرٌ يدل على مكانتهم في الشعر ومعرفتهم بدقائقه.
- وقد جَمَع المُعتنون بالنُّصوص المتضمّنة مواقف وآراء نقديّة جملةً كبيرة من الأخبار عن معاوية ﷺ وعبد الملك بن مروان، فيها دقّة ونفاذ. ويأخذ مؤرّخو النقد منها نماذج تمثل لحركة النقد الأدبي في العصر الأموي.

---

(١) للشعر خبر. وقد أوردنا الشعر وقصته في واحدة من فقرات البحث هنا.

وفي الكُتب الأندلسية المفقودة مؤلفات وُضعت في تواريخ بني أميّة، وتراجم رجالهم، وأخرى في أشعارهم المختارة، وأخبارهم. وقد استفاد منها المؤرّخون الذي جاؤوا بعد زمانهم، وبقي من تلك الأخبار والأشعار قدْرٌ يسير.

ومن أمرائهم: الحَكَمُ بنُ هشام بن عبد الرحمن الداخل، وكان قد تعرّض لحركة مناوئة له قام بها جماعة من الفقهاء استثاروا الناس عليه في أخبار مفصّلة في كتب التاريخ. وبعد إنهاء تلك الحركة، نَظم الأمير قصيدة اعتذر فيها لنفسه، ووصف مجريات الأحداث، ومنها[1]:

وإنّي إذا حادوا حِذاراً عن الرَّدى ... فَلسْتُ أخا حَيْدٍ عن المَوتِ جازعا

حَمَيْتُ ذِماري فانتهكتُ ذِمارَهُمْ ... ومَنْ لا يُحَامِي ظلَّ خَزْيانَ ضارعا

ولمّا تساقَيْنا سِجالَ حُروبِنَا ... سَقَيْتُهُمُ سَجْلاً من المَوْتِ ناقِعا!

وهل زِدْتُ أنْ وفّيتُهُمْ صاعَ قَرْضِهِمْ؟ ... فلاقوا مَنايا قُدِّرَتْ ومصارعا؟

وفي الشعر قوة، وجَزالة، وفيه متانة وفخامة. وهو يجمع بين الفخر الذي يلتقط أطرافه بحد سيفه، والحماسة التي تظهر في روح المناجزة، وردّ الصاع صاعين، وعدم الاستنامة إلى التواني، وعدم التحلّي بأي صفة من صفات الضعف والتخاذل. وقد نقل ابن الأبار في الحلّة السيراء[2] عن شاعر الأندلس عباس بن ناصح الجزيري وقد سمع هذا الشعر: «لو أنّ الحكم جَثا[3] للخُصومة بينه وبين أهل الرّبَض (الذين ثاروا عليه برئاسة بعض الفقهاء) لقام بعذره فيهم هذا البيت: (وهل زدتُ أنْ وفّيتُهم...)».

---

(١) الحلة السيراء: ١/٤٧-٤٨.

(٢) المصدر السابق: ١/٤٨.

(٣) في الحلة: «ولو أنّ الحكم يخشى للخصومة» وهو تحريف وتصحيف. ومعنى جَثَا: يَجْثُو جلسَ على ركبتيه للخُصومة ونحوها (اللسان ج ث و).

والشّعر، ونحن في القرن الثالث الهجري، ينهجُ نَهْجَ الشّعراء العرب الذين يُؤثرون البَداوة، والجَزالة، ويمضون على النّهج (العربي الأعرابي).

وقد جُمعتْ أشعارُ بعض أمراء بني أُميّة ورجالهم في الأندلس مثل أشعار عبد الرحمن الداخل، وأشعار المروانيّ الطليق[١].

وتبدو مَلامحُ مشابهةٌ في قصيدةٍ ذائعةٍ لعبد الرحمن الأوسط بن الحكم بن هشام الرضى بن عبد الرحمن الداخل (وهو ولد الحكم السابق ذكره) وقد أنشد الشعر في إحدى غزواته[٢]:

أُلاقي بِوَجْهِيَ حَرَّ الهجيرِ ... إذا كادَ منه الحصَا أن يذوبا

وأدَّرعُ النَّقْعَ حتى لبسْـ ... ـتُ من بعدِ نَضْرةٍ وَجْهِي شحوبا

أُريدُ بذاك ثوابَ الإلهِ ... ومَنْ غَيْرُهُ أبتغيه مُثِيبا؟

أنا ابنُ الهِشَامينِ من غالبٍ ... أَشُبُّ حُروباً وأُطفي حُروبا!...

وفي حكم نقدي مبكّر، قال الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي؛ في حوار متخيّل في أثناء رحلته الخيالية أيضاً[٣]:

«وعرب الأندلس منذ فتحهم هذه البلاد إلى يومنا هذا (القرن الرابع) ما تزال نزعتهم عربيّةً في كل شيء حتى في شعرهم، إلا ما أكسبتهم إياه طبيعة بلادهم وخصوبتها.. إلخ».

---

(١) انظر مثلاً: الشاعر (المرواني) الطليق وديوانه من كتاب: مع شعراء الأندلس والمتنبي، من دراسات عرّبها الدكتور الطاهر مكي، دار المعارف، القاهرة، ٦٤-٨٨.

(٢) الحلة السيراء: ١/ ١١٥.

(٣) حضارة العرب في الأندلس: ١٩٤.

استطراد لمناسبة

أ- بنو أمية Benihumeya

بعضُ أسماء الأعلام، مثلها مثل أسماء البلدان والمواقع، ترجعُ إلى المُدّة الأولى، أيّام الحُكم الأمويّ. ومن هذه الأسماء (بنو أمية). لقد درّسني - حين كنتُ أدْرُسُ الإسبانيّة في المركز الثقافي الإسباني - مدرس اسمُه: ألفونسو بنوميّة وكان يقول إن هذا النّسب يصلُهُ بأجداده العرب القُدامى[١] وهذا ظاهر.

- وتحدّثَتْ أ. سلمى الحفّار عن لقاءٍ أُسريّ التقت فيه بأحد أفراد أسرةٍ أَسّسَتْ جريدة (A.B.C) وهي تُعَدّ أكبر صحيفة إسبانيّة، الذي أخبرها بأنّه قضى وزوجته شهر العسل في دمشق، وفسّر لها سِرّ عنايةِ زوجتهِ بدمشق، وتعلّمها بعض المآكل الشاميّة؛ قال:

«لا تستغربي يا سيّدتي ما تقولُهُ (بلانكا) الزّوجة؛ لأنّها من أصلٍ دمشقيّ.. إنّ زوجتي من مدينة (مالقة) في الجنوب وهي تنتمي إلى أُسرة بني أُميّة: Benihumeya وهكذا تَرين أنّها تنحدرُ من العَربِ الدّمشقيين مباشرة!»[٢].

ب- التّسامح وشعرة معاوية ﷺ

قالت أ. سلمى الحفار في محاضرة لها بعنوان (أثَرُنَا في إسبانية) وهي تتحدّث عن الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، وعن إعادة عدد (يتكاثر كما يبدو) من الإسبان النظر في تقويم العصر الإسلامي في تلك البلاد وإعادة الحكم عليه[٣]:

---

(١) الإشارة مذكورةٌ في موضعها من الذكريات: (على ضفاف يزيد).
(٢) في ظلال الأندلس: ٩٤.
(٣) في ظلال الأندلس: ٦٤.

«يبدو أنّ الإسبان قد اقتنعوا اليوم[١] بأن القرون الثمانية التي مكث فيها العرب في بلادهم لم تكن قرون احتلال عادي أو اغتصاب اتسم بالتدمير والتعصب الديني لأنهم أخذوا يولون ذلك التاريخ المشترك الطويل كل عنايتهم ويرون فيه مثالاً نادراً للبناء والتقدم والتسامح».

- وقالت في موضع آخر من الكلمة[٢]:

«وكذلك يصرّح الإسبان بأن الفتح الإسلامي في بلادهم كان عنواناً للتسامح والرُّقي، وأنه كان ينبوعاً لحضارة أندلسيّةٍ عربيّة مشتركة خَلّفت لهم تراثاً فنياً وأدبياً، وآثاراً خالدة، كتبوا عنها كثيراً.

... كما أن الأمراء والخلفاء الأمويّين الذين جعلوا قرطبة عاصمةً لملكهم منذ منتصف القرن السابع الميلادي حتى نهاية العاشر من عبد الرحمن الأول (الداخل) حتى عبد الرحمن الثالث (الناصر) أصبحوا اليوم موضع تقدير الإسبان وتكريمهم، ولعلّ أبلغ دليل هو إقدام الإسبان على إقامة احتفالين رسميّين في قرطبة في السنوات الأخيرة، كان الأول منهما سنة ١٩٦١م تخليداً لذكرى عبد الرحمن الثالث بمناسبة انقضاء ألف عام على وفاته.. وأقيم الاحتفال الثاني في ربيع ١٩٦٣ تكريماً لذكرى الفيلسوف العظيم ابن حزم...»[٣].

قلت: وقد احتفلوا بعبد الرحمن الداخل، وأقيم له تمثال في بلدة (المُنكّب) حيث نزل أول ما نزل في الأندلس. ولنا كلام عليه في هذا الكتاب.

ومن يطالع تاريخ العصر الأموي في الأندلس يلاحظ:

١- كثرة الفتن التي يضطلع بها عادة المُتَشوفون إلى السلطة،

---

(١) سنة ١٩٦٥م.

(٢) في ظلال الأندلس: ٦٦.

(٣) وقد أقيم له تمثال بجوار سور قرطبة العربي (قريباً من موقع سكناه هناك).

والطامعون في إنشاء ملك، ولو على رقعة صغيرة. وأكثرهم كان مستعداً للاتفاق مع طرفٍ معادٍ من الدويلات الشمالية غير الإسلامية. وهذه الفتن ورغبات أولئك النفر في الترؤس - وإن كلفت غالياً - كانت في أسباب سقوط دولة الإسلام في الأندلس.

٢- معالجة الأمراء والخلفاء الأمويين لهذه الفتن بالسياسة، والترغيب والترهيب. وكان مثالهم دائماً: لا نضع السوط حيث ينفع اللسان، ولا نضع السيف حيث يُغني السّوط.

٣- كانت معالجة الأمويين لأحوال أبناء الديانتين النصرانية واليهودية على مقتضى سماحة الإسلام حتى ضرب المثل بتلك المعاملة. ولكنّ فئات متعصّبة من النصارى كانت تظهر مرة بعد أُخرى تثير الفتن وتفسد على المجتمع حياته الاعتيادية. ومن ذلك حسن معالجة الأمير عبد الرحمن الأوسط للفتنة التي أثارها القس أولوخيو الذي كان يحرّض من استطاع من النساء والرجال على سب النبي ﷺ علانيةً، والتي عُرِفت في التاريخ الأندلسي بـ(حركة الاستخفاف)[١].

ويشرب هذا التّسامح من مَعين الإسلام، ومن أسلوب الأمويّين القديم الملائم لذلك المعين النابع منه؛ كلمة معاوية ﷺ: «لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت؛ إذا شدّوا أرخيت، وإذا أرخوا شددت» هذا حفظي. وقد قرأت العبارة موصولة بأخرى مشهورة هكذا[٢]:

«قال معاوية (ﷺ): لا أضع سيفي حيث يكفيني سَوْطي، ولا أضعُ سَوْطي حيث يكفيني لساني؛ ولو أنّ بيني وبين النّاس شعرةً ما انقطعت كنتُ إذا مدُّوها خَلَّيْتُها وإذا خلَّوْها مَدَدْتُها».

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس: ١/ ١: ٢٦٧-٢٧٣. قال الأستاذ عنان: «ولم تشذّ حكومة قرطبة عن سياسة التسامح الإسلامي المأثور..» المرجع السابق: ١/ ١: ٢٦٧.

(٢) التذكرة الحمدونية: ١/ ٤١٤.

أصْدَاءُ الأسْماء

كان فيما انتقل مع عبد الرحمن الداخل، والأسرة الأمويّة من المشرق إلى الأندلس أسماء أجدادهم وكُنَاهُم، فقد تردّدت أسماءُ بني أمية المشهورة وألقابهم في أولادِ عبد الرحمن وأحفاده، وفي عقب الأمويين الذين وفدوا على الأندلس. ونظرة سريعة على الأنساب الأمويّة في كتاب (جمهرة أنساب العرب) لابن حزم تبين هذه الصلة الموصولة بين الأسماء والكنى والألقاب الأموية المشرقية، وبين أحفادهم والمنتمين إليهم في الأندلس وغيرها من البُلدان[1].

وأضْرِبُ أمثلة قليلة لتوكيد فكرة انتقال التقاليد الشامية الأموية من المشرق إلى الأندلس، حتى في مجال الأسماء والكُنى والألقاب؛ تعزيزاً - لا شعورياً غالباً - لتلك الرّابطة، واستجابةً للاعتزاز بالأصل والنّسب والسمعة الطيبة العالية لأولئك القوم، ذوي المكانة المعروفة في العَرب عامة، وقريش خاصّة.

وإذا سردنا نسب عبد الرَّحمن الدَّاخل، قلنا هو: عبد الرّحمن بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي بن أُمَيّة. وجدُّهم الأعلى (أميّة) هو الذي أعطاهم النّسبة المشهورة الأمويّة.

- وأُميّة هذا هو أمية بن عبد شمس بن عبد مناف.

- وعبد مناف هو الجَدُّ الذي يجمع بين بني أمية وبني هاشم.

ونرجع إلى عبد الرّحمن الدّاخل فإن كنية معاوية بن أبي سفيان ﷺ هي أبو عبد الرّحمن. وهو اسم يتردّد في بني أُمية. ومثله: هشام، وعبد الملك، ومروان، والحَكَم، وهي أسماء رجال منهم صاروا خلفاء في الأندلس.

---

(١) انظر جمهرة أنساب العرب: لابن حزم، ٧٤ - ١١٥.

وكان في أولاده سليمان: على اسم سليمان بن عبد الملك الذي أوصى بالخلافة إلى عمر بن عبد العزيز. وفي أولاد الداخل أيضاً هشام، على اسم جدّه هِشام بن عبد الملك، وفيهم المنذر، وهو اسم يتردّد في الأندلس كثيراً في أسمائهم.

وفي أحفاد الدّاخل: الحكم بن هشام، وهو والد مروان رابع خُلفاء بني أميّة في دمشق، وقد تردّد كثيراً، واشتهر اسم الحكم بن عبد الرحمن الناصر (تولى من ٣٥٠ إلى ٣٦٦هـ) وهو الذي جمع في قُرطبة أكبر عددٍ من الكُتب في أكبر مكتبة في العالم في ذلك الوقت.

وكان في أولاد الحَكم بن عبد الرحمن المشهور بالرَّبضي: عبد العزيز وهو اسم اشتهر مع عبد العزيز بن مروان والي مصر، ووالد عمر بن عبد العزيز. وفيهم أُميّة (على اسم جدّهم الأعلى).

وكان في أسماء أولاد هشام الرّضى: عبد الملك، والوليد، ومعاوية. والثلاثة الأسماء تذكار لثلاثة خلفاء في دمشق.

وتردَّد في أنساب بني أُمية في الأندلس أسماء سبق أن اشتهرت أو انتشرت في المشرق، فهي صدىً أندلسيٌّ لأصل مشرقي شاميّ أموي، مثل:

- مَسْلمة (تذكاراً لاسم مسلمة بن عبد الملك من القادة الكبار والولاة العِظام).
- والمُطَرِّف: وقد كَثُرَ ترداده بعد المطرف بن عبد الرحمن الداخل، وكنية الداخل أبو المطرّف.
- وعبد الملك، وأشهرهم في الشام عبد الملك بن مروان.
- وعمر، واشتهر عمر بن عبد العزيز (وسمّي عمر بهذا الاسم تيمّناً بعمر بن الخطاب ﷺ).

- وعبد العزيز، (أخو عبد الملك، ووالد عمر).
- وسليمان اشتهر في الشام سليمان بن عبد الملك، وانتشر شرقاً وغرباً...
- وهشام..
- والوليد (وكان الوليد بن عبد الملك من خلفاء الأمويين الكبار بدمشق).
- ومعاوية، وهو أبو عبد الرحمن، وتردّد اسمُه كثيراً في الأندلس.
- ومروان: أولهم ابن الحكم.
- والمغيرة، وهو من أجدادهم: المغيرة بن أبي العاصي بن أميّة.
- ومحمّد، وهو شائع فيهم، وتولّى الحُكم في الأندلس محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرّحمن الدّاخل.
- وسعيد، والأصْبَغ، وكان مسْلَمَةُ بنُ عبد الملك يكنى بأبي سعيد وبأبي الأصْبَغ. وقد كَثُر الاسمان في أسماء الأمويّين بالأندلس.
- والحَكم، فيهم: الحَكَم الرَّبَضِيّ[1] (ابن هشام)، والحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر.
- وعبد الله، وفيهم الأمير أبو عبد الله (أحد أمرائهم حَكَم خمساً وثلاثين سنة ٢٣٨-٢٧٣هـ) وحكم حفيده عبد الرحمن (الناصر) خمسين سنة ونصف السنة، واشتهر قبله عبد الله بن عبد الملك كان والياً على مصر لأخيه الوليد.

---

(١) الرّبضي نسبة إلى رَبَضٍ (ضاحيةٍ) بِقُرطبة، أوْقَع فيها ببعضِ الخارجين عليه، واشْتَدّ في عُقوبتهم.

- وقد شاعت هذه الأسماء، وغيرها ممّا تسمّى به بنو أمية في قديم أيامهم، وفي ظلال خلافتهم في الشّام. كَثُر ذلك في أولادهم وأحفادهم ومن يلوذُ بهم من الأقارب، وغيرهم. واسترسلت هذه الأسماء أعلاماً على أهل الأندلس في أيام الدّولة الأموية، وفيما وراءها (بأقل مما سبق).

وتردّدت تلك الأسماء في الأندلس مع:

- الأمراء والخلفاء الذين تداولوا الحُكم (الإمارة والخلافة).
- والولاة والقُوّاد من أفراد الأسرة، وإن كان الغالب على الولاة والقادة والقضاة ورؤساء الشرطة إلى غير ذلك أنهم من عامة الناس وليسوا من الأسرة الأمويّة، على فضلهم وصلاحيتهم لذلك.
- والعلماء والأدباء والشّعراء والفُقهاء والكُتّاب والعبّاد الزهّاد من الدّوحة الأموية...[1].

إنّها أصداءُ الأسماء التي تُبَيّنُ جانباً من جوانب الارتباط المُتَداخل العَناصر: من الارتباط النّفسي، والعاطفي، والوُجداني، والإخلاص للنّسب والحسَب، والإحياء لذكريات العُظماء والخالدين السّابقين.

(١) في كتب التراجم والأخبار والتواريخ إشارات كثيرة إلى رجال بني أمية في الأندلس من الفئات المذكورة كلها، ولكنها - على بيانها - لا تستوفي ولا تكفي، وهي كالصُبابة التي في آخر القدح (انظر مثلاً إشارات ابن حزم في الجمهرة).

في العُمْران

تبيّن أن بعض خُلفاء بني أُمية في المشرق أسهموا إسهاماً كبيراً في حركة العُمران؛ فاستحدث معاوية ﷺ بناء دار الحكومة (الخضراء)، وعمر الوليد بن عبد الملك المَسْجِدَ الأموي فجاء في مساجد الأمصار: (لا قبله ولا بعده). والتفت بعضهم إلى عمارة (القصر - البلدة) الذي يؤدّي أكثر من غرض مثل قصر الحير الغربي وقصر الحير الشرقي وقد بناهما هشام بن عبد الملك (جد عبد الرحمن الداخل) وحقق فيهما أغراضاً متعدّدة: الإصحار إلى البادية التي كان يألفها الأمويون، وتحريك تلك المواقع لتكون للنّاس مركزاً، ومحطّة تجارية، ومصنعاً للماء، ومثابة ومُنطلقاً للقوافل.. ونقرأ في هذا الموضوع، للدكتور عبد القادر ريحاوي[1]؛ وهو يتحدث عن قصر الجِيْر الغربي:

«وهكذا نرى في موقع قصر الجِيْر عملاً عُمرانياً متكاملاً يضم القصر والحمّام والبساتين والأقنية والخزّانات والسُّدود، ومنزلاً لقوافل المسافرين..».

واشتهر في مباني الأمويين بالشّام: رُصافة هشام[2]: فقد ظلّت

---

(١) العمارة العربية الإسلامية، خصائصها وآثارها في سورية: ٧٣.

(٢) المرجع السابق: ٩٢.

الرُّصافة عامرةً بعد الأمويّين قُروناً أُخرى. وهناك مبانٍ وقُصور، ومراكز قوافل، ومزارع، في قلب البادية كثيرة تشمل بلاد الشام بحدودها الطبيعيّة، وخاصّة في بادية الشام، في مواضع يمكن توفير الماء فيها بما يكفي، ويكفل استمرار الحياة: (من أقصى الشمال: الرّقة والرصافة إلى أقصى الجنوب عند نهايات البادية وتخوم الصحراء العربية)..

ويصعب في هذه العُجالة أن نورد أسماء المدن والقلاع والحصون والقرى التي بُنيت في الأندلس في مدّة الدولة الأمويّة: والتي تحتفظ بحالها العربية، أو حُرّفت تحريفاً قليلاً أو كثيراً بمرور السنين المتطاولة.

وقد بُنيت هذه المُدن والقُرى وسواها لأسباب بشرية (ديموغرافية) ودفاعيّةٍ وتجارية وعمرانية.

وكان ولوع عبد الرحمن بالعمارة والبناء والتشييد والتزيين كبيراً، على رغم مشاغله التي نغّصت عليه راحته زماناً طويلاً. ولا شكّ في أنه تأثر بما صنعه جدُّه هشام الذي كان يُفضل العيش في تلك المرابع البعيدة، ومعروفٌ أن وفاته كانت في الرُّصافة.

- وفي هذه المرابع: ما بناه العرب الكَنْعانيون (الفينيقيّون) قديماً في بلاد المغرب والأندلس امتداداً لحركتهم الاقتصادية والتجارية والعمرانية[1].

---

(١) ممّا بنوه في المغرب: ليكسوس (العرائش الآن) وتنجي Tingi (وهي طنجة الآن) وروسادير (مليلة الآن). وممّا بنوه في بلاد الأندلس: مالقة (وكانوا يسمّونها مالحة من تمليح الأسماك وحفظها) ومدينة غادير (قادر) وتعني القلعة وسمّاها العرب قادس (وهو اسمها اليوم) ومدينة سكسي وعرفها العرب باسم المنكّب (سمّوها كذلك) واسمها الحالي Almunecar مشتق من الاسم العربي، وهو مصيف غرناطة، وأسسوا قرطاجنة في بلاد الأندلس كما أسسو قرطاجة في تونس، ومعناها المدينة الجديدة (أو القرية الحديثة). انظر: الأندلس في =

- وفيها ما بناه عبد الرحمن الدّاخل، وهو الذي فتح الباب لمن جاء بعده، حتى صار (كالتقليد)، ووصل إلى الحاجب (بمنزلةِ رئيس الوزراء) محمّد بن أبي عامر، فقد بنى (الزاهرة) ليضاهي بذلك (الزهراء) التي بناها عبد الرحمن الناصر (وسيَمُرُّ الكلامُ عليها).
- وفيها ما بَناه من جاء بعده من الأولاد والأحفاد وُصولاً إلى الخلفاء منهم: عبد الرحمن الناصر (الثالث) حكم بين ٣٠٠ - ٣٥٠هـ، وابنه الحَكَم المستنصر حكم من ٣٥٠-٣٦٦هـ.
- لقد كان اهتمامهم الأول بالمسجد الجامع في قرطبة تأسيساً، وتوسيعاً، مرحلة بعد أُخرى، مع النمو السكاني، وزخرفة، وعناية.. واهتموا ببناء المساجد، واستجابوا للدّواعي الدفاعية، والسُّكانية، والعُمرانية في بناء القرى والقلاع والسّدود والأسوار وغير ذلك.

والمرية مدينة عربية بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٤هـ وعزّز بها موانئه البحرية بعد أن تعرّضت الأندلس لهجمات من الفاطميين في شمال إفريقية ومن النورمانديّين[١].

وفي الآثار الباقية[٢] أن اسم المدينة مأخوذ من كلمتي: (مرآة البحر) والأقرب أن تكون - لو كان الأمر كذلك - من (المرآة البحرية)، فقد أصبحت مركزاً رئيسياً من مراكز الصناعة البحرية، ومن أهم الموانئ

= التاريخ: د. شاكر مصطفى، ٩-١٠، وتحدّث د. مصطفى عن عدد من الجوانب العمرانية والزراعية التي قدّمها الفينيقيون في تلك البلاد.

(١) انظر للتفصيل: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس: د. السيد عبد العزيز سالم، والدكتور أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان ١٩٦٩، ١٧٣ وما بعدها.

(٢) الآثار الأندلسية الباقية: ٢٦٥.

الأندلسية، قال الأستاذ عنان في السياق نفسه: «كانت المرية في العهد الإسلامي من أهم ثغور الأندلس الجنوبيّة».

ولابن خاتمة الأنصاري (من أهل المرية) كتاب مفقود سمّاه: (مزيّة المَرِيّة على غيرها من البلاد الأندلسيّة)[١].

ولفظ المرية اليوم (Almeria).

والمُنَكّب (الآن Almunécar) هي البلدة التي نزل فيها عبد الرحمن أوّل مرة سنة ٢٣٨هـ، ومنها دخل إلى الأندلس، قال الدكتور أحمد مختار عبادي في المُشاهدات: «يبدو أنّ الاسم عربيّ بمعنى الحِصن المرتفع»، وهي - كما ذكر د. شاكر مصطفى - مدينة بناها العرب الفينيقيون باسم سكسي ثم غيّره العرب عند الفتح الإسلامي إلى المنكب. والاسم الإسباني هو من الاسم العربي[٢].

وبلد الوليد (Valladolid اليوم): «اسمها ينمّ عن أصله الأندلسي (يُريد العربي)؛ قال عنان[٣]: ولكنْ ليس من المعروف إن كان لها قبل الفتح تاريخ..» وقد حرّف الإسبان الاسم إلى بالادوليد = بلد الوليد! وفي هذه المدينة مات كريستوف كولومبس.

وادي الحِجَارة (ومُدن الوادي الأُخرى)

في أيام الأمير محمد شرع المسلمون في إقامة الحصون على الطريق المؤدي من طليطلة إلى وادي نهر إيبرو، فعرف الطريق كله باسم: وادي الحجارة (الآن Guadalajara). والحجارة هنا جمع حجر بمعنى حصن أو

(١) انظر مقدمة ديوان ابن خاتمة، ط دار الفكر - دمشق.
(٢) مشاهدات لسان الدين: ٧٩، والأندلس في التاريخ: شاكر مصطفى، ١٠.
(٣) الآثار الأندلسيّة الباقية: ٣١٨.

قلعة.. وعلى بعد ٥٥ كيلو متراً أنشؤوا حصناً نشأت حوله مدينة عُرفت باسم مدينة: وادي الحجارة، ويمتد خط الحصون إلى سجُونسه، و(مدينة سالم) ثم (دير الحجر) ثم (قلعة أيوب)، ثم (سرقسطة) وقد سمّيت (مدينة المائدة) بعد ذلك بقلعة عبد السلام..[(١)].

وفي الآثار الباقية للأستاذ عنان: «وادي الحجارة مدينة أندلسيّة قديمة، كانت تعدّ أيام المسلمين من المراكز الأماميّة للغزوات الإسلامية في (نافار) و(قشتالة).. إلخ»[(٢)].

وقال العُذْري في ترصيع الأخبار[(٣)]:

«وفي أيام الإمام عبد الرحمن بن الحَكم بُنيت مدينة مُرْسِيَة، واتُّخذت داراً للعُمال وقراراً للقُوّاد.. (وكان ذلك) سنة عشر ومئتين».

وكان سبب بنائها خَراب بلدة كانت قريباً منها، وقعت فيها فتنةٌ بين القيسية واليمنية من سُكانها؛ فجعلها الأمير عبد الرحمن بديلاً عن البلدة الخربة وعين عليها والياً ومنحه صلاحيات واسعة[(٤)].

---

(١) انظر للتفصيل: رحلة الأندلس: د. حسين مؤنس، ٣٣٥ وما بعدها. والآثار الأندلسية الباقية: ٣٢٨-٣٣٠.
- ويتردّد اسم (وادي الحجارة) على أسماع أبنائنا وهم يتابعون ألعاب كرة القدَم (فريق تلك المدينة)، على أن ثمة مدينة أخرى في أمريكة بالاسم نفسه نقلوه من الأندلس إلى هناك بعد اكتشاف أمريكة.

(٢) الآثار الباقية: ٣٢٨.

(٣) نصوص عن الأندلس: ٦.

(٤) حدثت الفتنة بسبب ورقة عنب واحدة!! «كان السّبب في ذلك أن رجُلاً من اليمانية استقى من وادي لورقة قُلّةً (ملأ جرّة ماء) وأخذ ورقةً من كرم لرجل من المضرية، فغطى بها القُلّة، فأنكر ذلك المضري وقال: إنما فعلت ذلكَ استخفافاً بي.. وتفاقم الأمر بينهما حتى تحارب الحيان، وعسكر بعضهم إلى بعض واقتتلا أشدّ قتال»!! الروض المعطار: مادة مرسية، وانظر ترصيع الأخبار للعذري: ٦.

وأختم هذه الفقرة، التي يمكن أن تطول، بعبارات من رحلة الأندلس، وقد صعد إلى المنطقة الشمالية في الأندلس التي كانت في تاريخنا داخلة في (الثغر الأعلى)، قال:

«أشهر هذه المُدن (في تلك المنطقة) ثلاث: لاردة (في الإسبانية: ليريدا) ووَشْقة (في الإسبانية: أويسكا) وتُطيلة (في الإسبانية: توديلا). قال: والمدينتان الأوليان أصبحت كل واحدة منهما قاعدة مديرية تحمل نفس الاسم. والثالثة تُطيلة: مركز إداري في مديرية نَبَرَّة... هذه المدن الثلاث مازالت تحتفظ بطابعها العربي... وأسمَاء القُرى والبلاد الصغيرة في الأرياف حولك تُدهشك بعروبة الكثير منها: أبو فاجيج (= أبو الحجّاج) أثيريد (= الصراط، أو السّراط) ألاذوير (= الدّوير تصغير دار) الأرْبا (= الأربعاء) البالاثيّو (البلاط الصغير)، الباريدا (= البريد، أو البلدة) الفاخارين (= الحجّارين)، الفاميرا (= الحمراء)..»[1].

- وهذه وقفات خاصّة عند عمائر مشهورة:

الجامع الأموي في قرطبة

يُقرن المسجد الجامع الأموي بقرطبة في الكلام على عظمة المساجد في الإسلام بالمسجد الجامع الأموي في دمشق.

ويقرّر د. السيد عبد العزيز سالم في أكثر من مؤلف وبحث له أن جامع قرطبة الذي أعاد عبد الرحمن الداخل بناءه سنة ١٦٩هـ اتبع فيه ما فعله الوليد بن عبد الملك حين أرضى النصارى في دمشق ليشتري نصف المكان (فقد كان نصفه مسجداً ونصفه كنيسة) وعوّضهم بما شاؤوا، وارتضوا، عند بنائه لمسجد دمشق.

---

(١) رحلة الأندلس: ٢٨٧-٢٨٨.
ويلاحظ تحريف الكلمات (قلّةً وكثرةً) في النطق الإسباني.

ثم إن المسجد الجامع بقرطبة يجْلُو تأثيرات فنية سوريّة لا سبيل إلى إنكارها سواء في زخارفه المعمارية أو في بعض عناصر بنائه، وفي نظام عقوده، وفي وضع مئذنته..[١].

قال: «ويُعَدّ هذا المسجد العظيم الأثر الوحيد في إسبانية لعصرٍ من أرقى العصور التي مرّت عليها، في الوقت الذي كانت تنغمس فيه الدول الأوربية الأخرى في ظلمات الجهل والانحطاط، كما أن بناءه يحتضن في عناصره ذلك المجد الذي بلغه الفنّ الإسباني الأمويّ..»[٢].

وقد ظلّ المسجد الأعظم المذكور تحت نظر أمراء بني أمية في الأندلس وخلفائهم بين زيادة فيه، وعنايةٍ به، وتحسين وتزيين، وأضاف منصور بني عامر (الحاجب للخليفة هشام بن الحكم) آخر إضافة على المسجد[٣].

وفي مطالعة موجزة للدكتور الريحاوي: «أنّ جامع قرطبة الذي بناه في شكله الأوّل عبد الرحمن الداخل سنة ١٦٩هـ يُعَدّ من مَباني الأمويّين بالرغم من أن بناءه قد حدث بعد سُقوط دولتهم في المشرق، فهو أمويّ بالنسبة لِبُناته، وللفنّ المعماريّ الذي ينتمي إليه»[٤].

الرُّصافة

على الرغم من انشغال عبد الرَّحمن بقضايا الدّولة الجديدة داخليّاً وخارجيّاً، وعمله الطويل على إخماد الفتن وحركات الانفصال

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ٢٠٩. وانظر للمؤلف نفسه، قرطبة حاضرة...: ١/ ٥٣.

(٢) المساجد والقصور في الأندلس: ١٠.

(٣) تحدث الدكتور السيد عبد العزيز سالم عن مراحل عمارة المسجد والزيادات عليه، والتحسينات الطارئة، انظر المرجع السابق: ٩-٤٧.

(٤) العمارة العربية الإسلامية: د. عبد القادر الرّيحاوي، دار البشائر، ٤٩.

والانقسام، ومكايد جواسيس المسوِّدة، التفت إلى البناءِ، والعُمران، وحقّق كثيراً من آماله العامة، والشخصية.

وقد سجّل مؤرخو السّياسة، ومؤرخو الفنّ والاقتصاد والاجتماع ما حصل في الأندلس في عهد عبد الرحمن من حركة معمارية وعمرانية[1]: «لم يسبق لها مثيل مُنذ وطئت أقدام المسلمين أرض الأندلس، فأقام مُنيَة الرُّصافة في أول أيام إمارته إلى الشّمال الغربي من قرطبة لنزهه ومقامه، وسمّاها باسم رصافة جدّه هشام التي أُقيمت إلى الشمال الشرقي من (تدمر) بين تدمر والفرات سنة ١١٠هـ، والتي كان يحنّ إليها حنيناً متواصلاً حتّى إنه كان يتردّد على رصافة قرطبة كثيراً، ويطيل في قصرها مقامه».

.. وكانت مُنْيَةُ الرُّصافة جِناناً واسعة نقل إليها الأميرُ غَرائبَ الغُروس، وأكارم الشجر من كلّ ناحيةٍ، وأودَعها ما كان استجلَبَهُ رسولُه إلى الشام من النّوى المُختارة، والحُبوب الغَريبة، حتى نمتْ سريعاً بحسن التعهُّد والرّعاية.. وأثمرتْ بغرائب من الفواكه التي انتشرت في عهدٍ قصيرٍ إلى سائر أنحاءِ الأندلس.

قصر الدّمشق

وأقام الأمير في الرُّصافة قصراً أبدعَ في تشييده، وتأنق في زخرفته وسمّاه: قصر الدّمشق؛ وكان يعرف أيضاً باسم مُنْيَة الرُّصافة، أي: قصر الرصافة.

وقد ذكر عبد الرحمن الرُّصافة في شعره، وممّا قال فيه:

تبدّت لنا وسط الرُّصافة نَخْلَةٌ تناءَتْ بأرضِ الغَرْبِ عن بلدِ النّخْلِ

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم: ٢٠٨-٢٠٩.

فقلتُ: شبِيهي في التَغَرُّبِ والنَّوى ... وطول ابْتعادي عن بَنِيَّ وعن أهلي
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ ... فمثلُكِ في الإقصاء والمُنتأى مثلي!
سَقاكِ غَوادي المُزْنِ من صَوْبِها الّذي ... يَسُحُّ ويسْتَمْري السّماكَيْنِ بالوَبْلِ[1]

وهي (رصافة قرطبة)[2] يقال فيها ذلك تمييزاً لها من غيرها، فإن في الأندلس أيضاً (رُصافة بلنسية) التي ينتمي إليها الشاعر المشهور الرُّصافي البَلنسي.

- وأثنى الشُعراء على قصر الدّمشق، وفيهم ابن عمّار[3]، فقد قال:

كل قَصْرٍ بعد الدِّمَشْقِ يُذَمُّ ... فيه طابَ الجنَى وطابَ المَشَمُّ
منظر رائقٌ وماءٌ نميرٌ ... وثرىً عاطرٌ وقصرٌ أشمُّ
بِتُّ فيه والليلُ والفَجْرُ عِندي ... عنبرٌ أشْهَبٌ ومِسْكٌ أحَمُّ

- وأشار د. السيّد عبد العزيز سالم[4] إلى أن اسم الرُّصافة Arrizafa ما يزال يُطْلَقُ على قرية في سفح جبل قرطبة في الموضع نفسه الذي كانت تقوم فيه منية الرُّصافة في العصر الأموي.

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET
https://twitter.com/SourAlAzbakya

قال: وهناك نخلة هرمة قَدُمَ عليها العَهْدُ حتى تآكلت أجزاء منها، وتداخلت فيها الحجارة، وبقايا الأبنية القديمة، ويُطلق الناس عليها اليوم: «نخلة عبد الرحمن»، وستتحدّث عنها.

وأشارت أ. سلمى الحفار في محاضرتها إلى الرّصافة، وقالت كما قال د. السيّد عبد العزيز من اتصال الرصافة بقرطبة «لانتشار العمران»

(١) الحلة السيراء: ١/ ٣٧.
(٢) معجم البلدان: ٣/ ٤٨.
(٣) ديوان ابن عمار: ٢٥٥؛ والأصل في نفح الطيب: ١/ ٤٧٠. قال: ويُنْسَبُ الشعر أيضاً للوزير المُصحفي.
(٤) تاريخ المسلمين وآثارهم: ٢٠٨.

وأضافت: «ولكن الحكومة الإسبانية بَنَتْ فيها فندقاً سياحيّاً أسمته الرّصافة[١] La Arruzafa».

رُصَافَةُ بلنسية[٢]

هي ضاحية سُمّيت باسم رُصافة هشام، ومحاكاة لرصافة قرطبة بناها عبد الله بن عبد الرحمن الداخل المشهور بالبَلَنْسِي[٣]، لطولِ إقامته بها، وقد ذكرها الرُّصافي البلنسي[٤]، فقال[٥]:

ولا كـالـرُّصـافَـةِ مـن مَـنْـزِلٍ سَقَتْهُ السَّحائبُ صَوْبَ الوَلِي

أحِنُّ إلـيـهـا ومَـنْ لـي بـهـا؟ وأيْـنَ الـسَّـرِيُّ مـن الـمَـوْصِـل؟..

- وما يزال اسمُ الرُّصافة يُطلَقُ على إحدى ضواحي بلنسية[٦].

- الوليّ: المطرة الثانية، وقبل الولي: الوسميّ (لأنه يسِمُ الأرض يترك علامات بعد جفاف الصيف).

- السّري هو السريّ الرفاء الموصلي أحد شعراء القرن الرابع الهجري. وقد ذكره الشاعر لأنهما معاً:

---

(١) بصمات عربية: ٣٠.

(٢) الروض المعطار: ٢٦٩.

(٣) عبد الله بن عبد الرحمن الدّاخل المعروف بالبلنسي (توفي ٢٠٨هـ) قام بأمر الأندلس بعد وفاة أبيه ريثما وصل أخوه هشام فتمت له البيعة. ولما مات هشام سنة ١٨٠هـ أعلن عبد الله العصيان ثم صالح الحكم بن هشام، ثم عصى أيام عبد الرحمن الأوسط، وفلج في خبر غريب فأطاع ثم مات وشيكاً.

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن غالب الشهير بالرصافي البلنسي (توفي ٥٧٢هـ) جمع له د. إحسان عباس مجموعاً شعرياً (ط)، وهو من أتباع المذهب الخفاجي في فن الشعر.

(٥) ديوان الرصافي: ١٢٤، وأصله في نفح الطيب.

(٦) إشراقات أندلسية: ٤٢.

اشتغلا بِرَفُو الثّياب (الصّفة: رَفَّاء) [وتحرّف في الشام اليوم فيقال: رَتّا].

ونزحا عن موطنيهما، فأقام السري في حلب (أيام سيف الدولة) وفي غيرها. ونزح الرصافي عن بلدته إلى (مالقة) وغيرها.

حين وصف ابن حوقل دولة الأندلس - وقد دخلها مستكشفاً، وقيل جاسوساً[١]- ورأى ما عليه بلاد الأندلس، أيّام عبد الرحمن الناصر من طيب الأحوال لم يُخفِ إعجابه[٢] ولقب قرطبة ببغداد الثانية، ووقف عند الزّهراء التي ابتناها الناصر، ووصف الرّصافة التي بناها عبد الرحمن الداخل.

قال المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال (والعبارة له):

«والواقع إن اختيار هذا الاسم - الرُّصافة - لعدد كبير من القصور المشيدة بقرب أبواب قرطبة لم يكن من محل الصّدفة، فالأمير عبد الرحمن الداخل هو الذي سمّى به أحد قصوره المحببة لكي يحتفظ في ملجئه الجديد بذكرى وطنه الذي اضطرّ إلى هجره، وبذكرى العرش الذي نُحّيَ عنه بهذه القسْوة، فهذا الاسم دليل قاطع على وجود تقاليد سُورية [يريد شاميّة] نشأت في إسبانية [المراد: الأندلس] في الوقت نفسه الذي أسّس فيه أمير أمويّ دولته، وليس هذا الدليل هو الوحيد، بل هناك كثير من الأدلة تُثبت ذلك».

---

(١) من بحث لـ: ليفي بروفنسال بعنوان: الشرق الإسلامي والحضارة العربيّة الأندلسية، تطوان، دار الطباعة المغربية، ١٩٥١، ١٢.

(٢) قرّر بروفنسال أن ابن حوقل كان متحاملاً على إمارة الأمويين بالأندلس، ص١٢، من البحث المذكور في الحاشية السابقة، يقول: إنّ لاعترافه أهميّةً مزدوجة.

قَصْرُ الحِيْر

في نفح الطيب[١] أن ابن بشكوال - أحد مؤرخي الأندلس وعلمائها - سُئل عن قصر قُرطبة فقال:

«هو قصرٌ أوّلي[٢] تداولته ملوك الأمم من لدن عهد موسى النبي ﷺ وفيه من المباني الأوّلية، والآثار العجيبة لليونانيِّين ثم للروم والقوط والأمم السالفة ما يُعجز الوصف، ثم ابتدع الخلفاء من بني مروان، منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها، في قصرها البدائع الحسان وأثّروا فيه الآثار العجيبة، والرياض المونقة وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قُرطبة على المسافات البعيدة، وتموّنوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها إلى القصر المكرّم، وأجروها في كل ساحةٍ من ساحاته، وناحية من نواحيه في قنواتِ الرصاص. تؤديها منها إلى المصانع صور مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز، والفضة الخالصة، والنحاس المُمَوَّه، إلى البُحيرات الهائلة، والبِرَك البديعة، والصّهاريج الغريبة في أحواضِ الرخام الرُّومية المنقوشة العجيبة.. قال:

ومن قصوره المشهورة وبساتينه المعروفة: الكامل والمجدّد وقصر الحائر، والرّوضة..

وأشار الدكتور سالم إلى قصر الحير (أو الحائر) وقال: ذكره الوزير ابن القبطرنة بقوله:

بالحِيْرِ ما عَبسَتْ هناك حَمامةٌ إلّا تضاحَك إذْخِرٌ وجليلُ!

قال: وهو حِيْرُ الزجّالي الواقع خارج باب اليهود بقرطبة، وكان

---

(١) نفح الطيب: ١/ ٤٦٣.

(٢) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: ٢٠٥.

صحنه على حد قول الفتح بن خاقان (صاحب القلائد) صافي البياض يخترقه جدول كالحية النّضناض..

ثم قال: كذلك يذكرنا قصر الحائر من قصور الإمارة بقرطبة بقصر الحائر الذي أسسه هشام بن عبد الملك في بادية تدمر.

وقصر الحِيْر الذي كان مثالاً احتذى عليه بنو أميّة، والمهندسون الذين ترسّموا نهج العمارة الأموية المشرقية هو:

«قصر الحِيْر الغربي»

وهو قصر يقعُ عند تقاطع الطرق التجارية (في بادية الشام) بين الرقة ودمشق وحمص وشبه الجزيرة العربية، قريباً من جبل رواق على نحو (٦٠) ستين كيلومتراً جنوب غرب تدمر.

وهو قصر بناه الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥هجرية، بعد إنعاش الواحة التي بني القصر - المدينة إلى جانبها[١].

والواحة المشار إليها ذات أصل قديم، فقد كان التدمريّون قد أقاموا في القرن الميلادي الأول سد حريقة الضخم (بلغ طوله ٦٠٠ متر) في الجهة الشمالية من الجبل، ومن السدّ تفرعت قناة طولها ١٨كم في الاتجاه الشمالي وكانت تصب في خزان مياه. وقد بيّنت الحفريات الأثرية أن الأطلال الماثلة هناك هي «مجمّع قصور كبير يرجع إلى العصر الإسلامي الأول، ونواة هذه المنشآت قصر الخليفة هشام».

ومع هذا القصر بُستانٌ واسعٌ، وحقولٌ مُسَوّرة للحيوانات، وحوض

---

(١) المعلومات مُستقاة من بحث واسع في هذا القصر، ورد في كتاب: الآثار السورية مجموعة أبحاث أثرية تاريخية: (مجموعة من الباحثين) قام بالترجمة د. نايف بلوز، وصدر الكتاب عن مؤسسة البريد الدولي للصحافة والنشر، ودار فورفرتس للطباعة فينا النمسا، ١٩٨٥، (صفحات البحث من ٢٦٤ إلى ٢٦٧).

لتجميع المياه (٦٠ متراً) وهو يمدّ طاحونةً، ومحطةً للقوافل مجاورة بمياهه.

وفي البحث الذي كتبه الآثاري ميشيل ماينكه عن قصر الحير الغربي، وأعمال هشام بن عبد الملك العمرانية، قال بعد إفاضةٍ في المعلومات والبيانات:

«وهكذا يُمكن القول إن القصر بكل مُنشآته قد أمر ببنائه الخليفة الأموي هشام الذي آثر أن يقيم في البداية [فيه] بدلاً من العاصمة دمشق. وهو الذي أمر أيضاً بتوسيع بناء مدينة الرُّصافة التي كانت مقصداً يُقْصدُ إليه، وكذلك: ببناء:

«قصر الحير الشرقي»

على بُعد ٩٠ كم شمال شرق تدمر.

- وقال الباحث، وقد مرّ على ذكر البنائين واختلاف مشاربهم من أنحاء الإمبراطورية الإسلامية لإنجاز الأعمال العمرانية والفنيّة[١]:

«ولكن بالرغم من الاقتباس الواعي عن النماذج المحلية السابقة شُيِّدَ حَرَجٌ عمراني فني يتَّسم في مجمله بطابع خاصّ متميّز كما أن إعمار الواحة الاصطناعية يتميّز بجلاء عن أعمال العصور السابقة للإسلام..».

وقد تم التنقيب عن بقايا القصر ومكانه والقناة، والسَّدّ، وغير ذلك من متمِّمات القصر - المدينة (كما ورد في التقرير) ما بين ١٩٣٩-١٩٥٠.

وأعيد بناء أجنحة بوابة القصر في المتحف الوطني في دمشق[٢].

---

(١) المرجع السابق: ٢٦٧.

(٢) المرجع السابق: ٢٦٥.

مجريط... مدريد

واسم مدريد يأتي من اللّفظ العربي: «مجرى» مضافاً إليه أداة من اللغة الإيبريّة القديمة هي «إيت» أو «إيط» ويراد بها التكثير، فـ: مجريط معناه الموضع الكثير المجاري، أو الكثير المياه، وهذا - كما قال د. مؤنس - يطابق الحقيقة التاريخية، ومدريد القديمة كانت تقوم إلى جنوب مدريد الحالية على مقربة من النّهر الصغير الذي يُسمَّى بـ(المنثاناريس)، وعندما عمرها العرب ساقوا إليها المياه ونظموا جريها بواسطة قناطر وحنايا آثارها باقية إلى اليوم[١].

وعدّ العرب منطقة مدريد منطقةً عسكريّةً أنشؤوا فيها سلسلةً من الحُصون تُقَوّي قلعة مدريد وتحمي ما وراءها[٢].

وكان الذي أمر ببناء هذه المحلة الصغيرة (مجريط) هو الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم.. وأريد لها أن تكون قلعة دفاعية كما أسلفت، ولكنها كانت مقطونة، وتخرج فيها علماء، وكانت مقرّ حاكم يعيّنه الأمير من قرطبة[٣].

فبناؤها تم - إذن - في ظل الإمارة الأموية (القرن الثالث) وجُرّت إليها المياه على نظام معروف في الشام، هو نظام الأقنية (جمع قناة) التي يقال لها في الأندلس الحنايا (جمع حنيّة).

لقد عرف العربُ في بعض مناطق الجزيرة (حيث تتوافر المياه الجَوْفيّة) نظام الأفلاج الذي عرفَهُ الشّاميون باسم الأقنية أو القنوات، وقد تحدّث الدكتور فرنيت عن هذه القُدوة في منطقة (مجريط) وغيرها[٤].

---

(١) رحلة الأندلس: ٣٠.

(٢) المرجع السابق: ٣١٩.

(٣) الآثار الأندلسية الباقية: محمد عبد الله عنان، ٣٣١-٣٣٣.

(٤) فضل الأندلس: ٤٤-٤٥.

- وقد خلدّ الشعر ما صنفه الخليفة الأموي الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) حين جرّ المياه في القنوات محفوظة بأنابيب الرّصاص من جبل قرطبة، إلى سقايات المسجد الجامع الأموي والميضأتين الملحقتين به؛ فقال محمد بن شخيص يخاطب الحكم[١]:

وقد خَرَقْتَ بطون الأرض عن نُطَفٍ من أعذب الماء نحو البيت تُجريها

طهرُ الجسوم إذا زالتْ طهارتُها ريُّ القلوبِ إذا حرّتْ صَوادِيها

الزّهراء

ولنعد إلى مدينة الزهراء لنسرّح الطرف في الغرائب التي ظهرت بها، يدلّ عليها انتقال عناصر جديدة من المشرق إلى الأندلس في عصر ازدهرت فيه العلاقات أيام الحكم المستنصر (تولى بين ٣٥٠-٣٦٦هـ)[٢].

- وقال وهو يتحدث عن عضادات عليها نقوش:

«ومن ناحية أُخرى تتراءى في بعض المساحات الزخرفية أوراق الكرم والبلوط، وتذكرنا بزخارف (المَشْتى) و(رباط عمان) بالشام، وهي تطابق الأسلوب الكلاسيكي»[٣].

---

(١) البيان المغرب: ٢/ ٢٤٠.

(٢) الفن الإسلامي في إسبانية: ٩٦.

(٣) المرجع السابق: ١٠٥.

- وكتبت نجلة إسماعيل العزّي: (قصر الزهراء في الأندلس) عن مشاهدة ودراسة مباشرة، ونشر الكتاب سنة ١٩٧٧.

الأثر الشّامي
في الخَلْق و الخُلُق

بعد رحلته - في مهمة علميّة - إلى الأندلس، وبعد تجواله في قرطبة وإشبيلية وغرناطة وغيرها من منطقة (أندلوثيّا) كما تسمّى اليوم. علّق أستاذنا سعيد الأفغاني رحمه الله على ما رأى في الحارات القديمة، وفي مرأى النّساء خاصة، والرجال، فقال: «تشعر وكأنك تجول في القيمرية أو سوق ساروجة، أو في القنوات[1].. وكأن السكان هناك ومساكنهم القديمة أحياء دمشقية، وسكان دمشقيون لا يخطئك منهم شيء اللهم إلا اللّغة.. فلو صحّ اللسان العربي فيهم لما كنت تخرج من إطار الزمان، وأنت في عزّ المكان!..».

وحين زرتُ الأندلس وجُلْتُ فيها من الشمال إلى الجنوب مجيئاً وعودة سنة ١٩٧٦ (تموز - آب من ذلك العام) عاينتُ ذلك، وما هو أكثر منه. لقد كنت رسمتُ صورة بقاع الأندلس من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها من خلال قراءتي ومتابعاتي في كتب الأدب والشعر، والتاريخ والجغرافية، والفقه والتفسير، وغير ذلك من سائر المعارف: من

(١) من أحياء دمشق القديمة الأصيلة.

تراث أهل الأندلس أنفسهم ومما كُتب عنهم في كتب الباحثين العرب والمستشرقين.. وما ترى العينُ غير ما تعي الأُذن. أحياناً تكون الحقيقة أروع من الخيال.

في الأندلس، وإن كنتَ القارئَ النّهم الأوّلَ في العالم فإنّ ما تراه العينُ - وإن بَعُدَ الزمان، وأكل الجهلة من التراث العربي الإسلامي وهدمُوا، وأهملوا - هو أعلى وأرقى مما ثبت في الكتب.. هذا الباقي ينطقُ بروعة الماضي ويقدّم عليه الدليل..

قبل وصولي إلى غرناطة آتياً من إشبيلية كان الوقتُ بعد العصر، ودخلنا في طريق فيه التواءات في صُعود.. وانتبهتُ إلى سائق الشاحنة المتقدِّمة علينا يُعطينا إشارةً بالغمازات المُضيئة.. ويضيفُ إلى ذلك الإشارة باليد من نافذة السيارة، ابتسمتُ وقلت لمن معي (زوجي، وابني لؤي): هذا المنظر لم نره في أوربة كلّها.. هذا ابن عمّنا.. يشير بيده مثل أهل بلادنا!..

- وفي غرناطة اخْتَرْنا مُخَيماً يؤوينا في زيارتنا للمدينة، ويصلح لوضع السيارة في المَرْأب الملحق به. وقفنا عند البوابة لحظة، ونزل ابني لدفع الرسوم، وسمحوا لي بقيادة السيارة إلى داخل المخيم، دون انتظار. وما إن وصل لؤي - حفظه الله - ببطاقة الإقامة، وقبل أن ننزل رحلنا قدمت علينا فتاةٌ لباسها كلباس أهل الشام، تربط شعرها وتغطي بعض رأسها بقمطة على الطريقة الشامية... اقتربت وسلّمت.. لكنّ لسانها كان عربيّاً في لُكنة إسبانية..

لقد سمعت حديثنا في السيارة، وإرسالَ لؤي لاستحضار بطاقة الدُّخول فجاءت إلينا مُسَلِّمةً، دفعتها رابطةُ القرابة القريبة؛ فهي زوجة عربي من سورية، ورابطةُ القرابة البعيدة، فهي أندلسيَّةٌ غرناطيّة لا يشك من يراها في أنّها خرجت الآن من دارها في سُوق ساروجة أو القنوات أو باب سريجة!.. احتفَيْنا بها، وسرَّها لقاؤنا.. وحين غادرت كُنّا قد

ضَربنا خيمتنا تحت شجرة مشمش بلدي تتمايل ثمراتها على طرفِ الخَيْمَة الشاميّة!..

* * *

لقد استفاضَ الكلامُ على كثرة الوافدين الشاميين إلى قرطبة؛ من الجُند، ومن الطوالع، ومن الأمويين الناجين من مجازر العباسيِّين ورهطهم، ومن موالي بني أمية الذين أصابهم الحيف لعلاقة أقوامهم بالدولة الأموية في الشام، ومن الذين تسامعوا بما عليه الأندلس في طبيعتها وأحوالها وإيوائها القادمين وحفاوتها بهم.

وقد سبق القول إن أهل الشام من طالعة بَلْج بن بشر قد وُزِّعُوا على البلاد الأندلسية على وجوه تلائم مواطنهم القديمة هناك.

وهكذا كَثُر العُنْصُر البشري الشامي، وغلب على مواضع بأعيانها، وإن كان انتشارُه واسعاً. وتوالت الأجيالُ الجديدةُ المتولدة من العُنصر الشامي ومن أهل البلاد (قبل دخول الإسلام) وظلّ الطابع الشامي غالباً عليهم، مثلما استمرت العادات والتقاليد الشامية شائعة على وجوه مختلفة من الانتشار والشيوع.

- لقد كانت العناصر البشرية في الأندلس متنوعةً من حيثُ الجنسُ والعقيدةُ والثقافة. فقد ضَمّت الأندلسُ مع العرب الفاتحين (وهم البلديون) والعرب الوافدين (وهم الداخلون): جماعةً من الإسبان المَسالمة (الذين دخلوا في الإسلام) والعجم الذميِّين أو المستعربين (بقوا على دينهم القديم) والمولدين (وهم نتاج التزاوج بين العرب ونساء الإسبان)، ثم البربر (دخلوا مع طارق أو هاجروا من المغرب)، وأخيراً طائفة من اليهود[1].

(١) يُنظر التفصيل، ولا نستطيعه في هذه العُجالة، في مثل بحث (المُجتمع الأندلسي) =

لقد التفّت عناصر واسعة من السكان حول بني أميّة من الموالي بالأندلس (عُرفوا بالأمويّين) واليمنيّة، وجمهرة الموالي بالأندلس (من الإسبان الذين دخلوا في الإسلام) ودخلوا في ولاء بني أمية وغيرهم...

ومن هنا، ومن خلال هذا الخليط، وائتلاف معظم عناصره، كان الطابع العام للسكان يُظهر السمات المشرقية (المطعَّمة) بشيء من السمات المحلية... فإذا أضفت السياق العام للعادات والتقاليد والملابس والأحوال.. رجعت بك الحال إلى مشابهة منْ في الشام من أقارب أولئك الأندلسيين وأنسبائهم.

وبين العبارة الشعرية، والوقائع المرئية، والمطالعة التاريخيّة، نقرأ للأديبة الكاتبة سلمى الحفار، وقد أقامت في الأندلس زماناً وكتبت القصص والبحوث؛ ما نصّه[1]:

«أوّل البصمات المرئيّة التي تسْتَقْطِبُ اهتمام الزّائر للأندلس هو الشبَهُ الكبيرُ في التكوين الفيزيولوجي بين سكّان مُدنها وقراها، وبيننا نحن الشوام خاصّة، وكذلك الشَّبَهُ الواضحُ بين طِباعهم وطباعنا. إنّه يرى نساءً ورجالاً وشُيوخاً وأطفالاً ذوي عُيون سوداء جميلة، وشُعور كثيفة، وبشرات حنطية اللون، وقامات مُعتدلة في أكثر الأحيان.

كما يَلْحَظُ عندهم كرماً أصيلاً، وشهامةً في التعامل، وتمسّكاً بتقاليد الأسرة، ونزوعاً للكلام بأصواتٍ مرتفعة، وحبّاً للموسيقا والغناء والسهر،

= من كتاب الدكتور حسين مؤنس، فجر الأندلس: ٣٥٥ وما بعدها.
- وكتاب تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: فصل: عناصر السكان، ١١٩ وما بعدها.

(١) بصمات عربية ودمشقية في الأندلس: ٢٠، عن محاضرة أُلقيت أول مرة بدمشق سنة ١٩٨٩.

وإصراراً على أخذ قسط من الراحة بالقيلولة لتشابه المناخ بين إقليمهم وأقاليمنا.

وإننا لنكتشف هذه الطباع وتلك الأعراف التي توارثوها جيلاً في إثر جيل، في مختلف المدن وفي الأرياف حيث مازال الرجل الأندلسي يتصفُ بالنخوة، ويعامل المرأة بشيء من الخشونة، فلا يجاملها مجاملة الأوربي لها، ولا يتنازل عن حقه في الزعامة. كما أن المرأة الأندلسية محتشمة احتشام المرأة العربية مما يزيد في فتنتها. ومع أنها انطلقت إلى ممارسة الأعمال الحرة والحكومية في السنوات الأخيرة، فهي مازالت راعية الأُسرة، حريصة على حُسن سمعتها، ومحافظة على القيم الأخلاقية، إذْ قلما تسترسل استرسال غيرها من نساء أوربة وأمريكة المعاصرات.

ونلحظ اعتزاز الأندلسيِّين بالدم العربي الذي يجري في عروقهم، لأنه في اعتقادهم دليل على عراقة منبتهم. ولستُ أغالي إذ أقول: إن الأندلسيين الذين مازالوا يَحْمِلُون كُنى عربيّة [ألقاباً] فَخُورون بالانتساب إليها مع أنّ بعضها قد أصابهُ التحريف في لغتهم فأسرة (القصير) مثلاً هي في الإسبانية Alcocer وأسرة (بني أميّة) هي: Benihumeya، وأسرة (المدوّر) هي: Almodorar، وأسرة (القلعة) هي ...Alcal'a».

في منتجات الحضارة

كان في جملة ما أحدثه عبد الملك بن مروان (٢٦-٨٦هـ) في الدّولة أمور مهمة في الإدارة والسياسة والاقتصاد والأحوال الاجتماعية، وما يخصّ هيبة الدولة وأُبّهة الحُكم. ففي أيامه (حكم من ٦٥-٨٦هـ):

- نُقلت الدّواوين من الفارسية والرومية إلى العربية.
- وضُبِطت الحروفُ بالنقط والحركات.
- وكان أوّل من سَكّ الدّنانير في الإسلام.
- وأوّل من نقش بالعربية على الدّراهم والدّنانير.
- وأنشأ داراً للطّراز، مهمتها صناعة ملابس بديلة عن الملابس التي كانت تُستورد من الأسواق الروميّة، وكان عليها كتابات لا تتفّق والأفكار والمقولات الإسلاميّة.

وقد سار الخُلفاء من بعد عبد الملك على هذا النّهج، واستمرت دار الطراز على مهامها في الدولة العباسية، وفي ظل المماليك وغيرهم. وفي صبح الأعشى للقلقشندي (توفي ٨٢١هـ) من العصر المملوكي «..ولذلك دار مفردةٌ بعمله في الإسكندرية تُعرف بدار الطراز، وعلى ذلك كان خلفاء

الدولتين: بني أمية وبني العباس حين كانت الخلافة قائمة»[١].

وكان الأمير عبد الرحمن الأوسط أوّل من أنشأ من أُمراء بني أميّة في الأندلس داراً للطّراز، وأنشأها في مدينة قرطبة (العاصمة مقرّ الإمارة ثم مقر الخلافة، وفي هذه الدار كانت تُنْسَجُ ثيابُ الأمراء والخُلفاء..)[٢].

ويبدو أنّ تأخر العناية بالطّراز في الأندلس كان:

١- للبَساطة التي غلبت على عبد الرحمن الداخل، وعلى هشام الرّضى، والحَكَم.

٢- للانشغال في ضبط أُمور الأندلس، وبناء الدَّولة، والقضاء على الفتن، ومُناجزة العدو، وأخبار هؤلاء الثلاثة خاصة، مشهورة.

وعبد الرحمن الأوسط هو الذي «استكمل فخامة الملك بالأندلس، وكسا (الخلافة) أبهة الجلالة..» كما وصفه ابن الأبّار في (الحلة السّيراء)[٣].

وهو أول من رتب اجتماعاً دوريّاً لمجلس الوزراء في التاريخ الإسلامي، وفي تاريخ افتتاح الأندلس «عبد الرحمن أول من رتب اختلاف الوزراء إلى القصر والتكلم في الرأي على ما هو جارٍ إلى اليوم..»[٤].

- ويذكر واشنطن إيرفنج (الحرفيّين الدمشقيّين) وهو يتحدث عن روعة

---

(١) صبح الأعشى: ٤/ ٧.
(٢) قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس: ٢/ ١٥٤-١٥٥.
(٣) الحلة السيّراء: ١/ ١١٣.
(٤) ابن القوطية: ٨٣.

الخطوط والنقوش في قاعة الأختين في قصر الحمراء، والنصّ في ترجمة إبراهيم الإبياري[١]:

«... والجزء الأدنى من الجدران مُغَطّى بقرميد عربي جميل، قد زُوّق بعضه بشعار حكام العرب، بينما قد غُشّيت الأجزاء العُليا بأشكال من المضّيص صُنعت في دمشق ألواحاً كبيرة صُبّت في قوالب وقد وصل بعضها إلى بعض بمهارة حتى لتبدو أنها من حفر يد صَناع، بارزة بروزاً واضحاً على طراز عربي مبهرج بالزينة، وقد امتُشِجَت بآياتٍ من القرآن وأبيات من الشعر بخط عربي أو كوفي».

- والعبارة المقصودةُ في محاضرة أ. سلمى الحفّار[٢]:

«وعندما يتأمل (الزّائر) دقة النقوش في قاعة الشّقيقتين وزخارف القُبّة والجدران، وجمال الخطوط العربية والآيات المصنوعة بقوالب من الجصّ، هي من ابتداع الحرفيين الدمشقيين، تعتريه الدّهشة أمام تناسُق الألوان..».

- والمقصودُ بعبارة «شعار حُكام العرب» في كلام إيرفنج عبارة: (ولا غالبَ إلا الله) وكانت علامة (شعار) دولة بني الأحمر مُلوك دولة غرناطة (حكموا الباقي من الأندلس من عاصمتهم غرناطة من ٦٣٥- إلى ٨٩٧هـ).

السُّيوفُ الدِّمشْقِيَّة

اشتهرَ في السُّيوف ذاتِ المزايا والخُصوصيّة سُيوف دمشق[٣]، فإنها

---

(١) قصص الحمراء: واشنطن إيرفنج، ترجمة إبراهيم الإبياري ومراجعة إبراهيم خورشيد، طبع دار المعارف بمصر، ٣١.

(٢) بصمات عربية: ٣٦، وأحالت على: حكايات الحمراء: واشنطن إيرفنج، دار إيفرست للنشر، ط٣، ١٩٧٧، ص٣٧-٣٨.

(٣) موسوعة المورد: ٩/ ١٦٣، والموسوعة العربيّة الميسرة: ١/ ١٠٥٢.

عُرِفت بجودتها منذ القدم، و«امتازت نصالُها بقطعها الجيد.. والسيوف الدمشقية أقطع جميع السّيوف المولّدة».

وتتحدّث المصادر عن سيوف شاميّة أُخرى (تصنع وتطبع في أماكن أخرى من بلاد الشام مثل (بُصرى)، و(دياف) جنوبي البتراء[١].

ويورد د. بهنسي أبرز نماذج هذه السّيوف التي كانت للخلفاء الأمويّين[٢] وهي من صنع عمال حرفيّين دمشقيين، مايزال بعضها محفوظاً في المتاحف[٣] مثل سيف معاوية بن أبي سفيان ﷺ وهو سيف مستقيم، وسيف عمر بن عبد العزيز (مؤرّخ في عام ١٠٠هـ وسيف هشام بن عبد الملك تاريخه ١٠٥هـ إلخ).

ولم يؤثر انتقال العاصمة من دمشق بعد ظهور المسوّدة، بل استمرت السيوف الدمشقية رائجة معروفة في العصر العباسي.

وانتقلت السّيوفُ الدمشقية، وطريقة صناعتها إلى الأندلس.. ولقد عُني عبد الرحمن الأوسط بتشجيع صناعة السيوف في طُلَيْطِلة[٤]، وفي المَرِيَّة[٥] التي قطنها الدمشقيّون.

وقال د. بهنسي في مكانٍ آخر[٦]:

«... وكانت طليطلة قد اشتهرت بصناعة السيوف لوجود الصنّاع الشاميين فيها.

---

(١) الشام لمحات آثاريّة وفنية: د. عفيف بهنسي، ٢١٦.

(٢) المرجع السابق: ٢١٧.

(٣) في مُتحف طوب قبوسراي (استانبول).

(٤) طليطلة في وسط الأندلس وهي Toledo، واذكر قول شوقي:

لولا دمشقُ لما كانت طليطلةٌ ولا زَهَتْ ببني العبّاسِ بغدانُ

(٥) في الجنوب الشرقي من الأندلس.

(٦) الشام الحضارة: ٧٨.

أمّا فن ترصيع الفولاذ وسواه من المعادن بالذهب والفضة وتزويقها بالصور على شكل الزهر، وهو فنّ جيء به من دمشق فقد زها في بضعة مراكز (في شبه جزيرة إيبريا) وأوربة، وترك أثراً في اللغة تدل عليه ألفاظ فنيّة مثل Damascinage وتعني التكفيت الدّمشقي»..

وطُلَيْطلة: التي اشتهرت أيام الحكم العربي - الإسلامي بعدد من الصناعات المتقنة من الصناعات المعدنية والنّسيجية، ما تزال تختص بشيءٍ غير قليل مما كان في زمانها الغابر، وتقرأ للأستاذ عنان[1] في وقفته عند آثار المدينة الأندلسية:

«توجد في طليطلة مصانع رسميّة للسلاح والذخيرة، وقد حافظت طليطلة على شهرتها القديمة في صُنع الأسلحة والآلات القاطعة وكذلك صُنع الأقمشة الحريرية.. وكانت صناعة الأسلحة الطليطلية من أزهر الصناعات أيام المسلمين. وقد شاهدنا من مُنتجاتها السيوف والمُدى الفاخرة التي زُيّنت بالعاج والأحجار الثمينة، كما شاهدنا تُحفاً كثيرةً دقيقةَ الصّنع يفتخر الطليطليّون بها...».

ومن هذه الصناعات المتقنة صناعة الحُلي من المعادن الثمينة ومن غيرها: (الحُليّ الشعبية) وهي جميعاً تكتسب اسم الدامسكينو: الدمشقي الذي توارثته الأجيال الأندلسية منذ أن دخل تلك البلاد مع الصُّناع الشاميين الذين أسّسوا الصّنائع النّفيسة في طليطلة وغيرها، ثم بقيت وراءهم مع المسلمين الأندلسيين وغيرهم من الذين تعلّموا على أيديهم تلك الصّنعة من النّصارى واليهود. ذهب زمان العرب، ولكنّ آثارهم بقيت حيّة في كل جانب من جوانب الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والعُمرانية.. إلخ.

---

(١) الآثار الأندلسيّة الباقية في إسبانية والبُرتغال: محمد عبد الله عنان، ٩٢.

ولا أنسى عبارة «دامسكينو» حين قالتها البائعة في أحد محالّ الصّياغة وبيع المُنتجات التّزيينيّة في سوق قديم من الأسواق العتيقة (القديمة) من طُليطلة وصفاً لأساور وحلق وشكلات وعُقود من الحُلي النّسوية. كنتُ أعرف هذه الحقيقة ولكنّ سماعي هذه الكلمة من تلك الفتاة ذات الملامح المختلطة بين العربية والأوربية فتحت باب الخيال لي، حتى إنها لاحظت ذلك علينا (أنا وزوجتي وابني لؤي) وقلنا لها: تبيعين الدّامسكينو لأناس جاؤوا إليك من دمشق! وكان موقفاً رقيقاً لفت أنظار المشترين في ذلك المحلّ منا ومن البائعة الأندلسية..

وشهرة طُليطلة بالسّيوف والمُدى المُطَعّمة المُزخرفة شهرةٌ موصولةٌ بدمشق التي ما تزال تصنع تلك الأسلحة التقليدية وتكتسب شهرةً عالمية.

وما أقرب منظر الشوارع والأسواق القديمة في طليطلة بالمدينة الدمشقية.. إنّه خَطُّ الحضارة الموصول بين هاتين المدينتين الذي تزيده الأيام رُسوخاً. وحين قارن شوقي بين طليطلة ودمشق مقارنة الاتفاق كان ذلك منه على علم ومعرفة.. ولن يختلف الأمر كثيراً لو قلت: طُليطلة أو قلت: Toledo؛ تقارب الاسمان والمُسَمّى واحد!

صناعات نسيجية

في فقرة عن صناعة الأقمشة والديباج والمنسوجات قال الباحث الإسباني مورينو في جملة ما أورد في البحث[1]:

«لقد أثرت في هذا الفن الصناعات المشرقية بابتداعاتها الرائعة تأثيراً كبيراً بحيث جعلت من إسبانية لسانها الناطق باسمها في أوربة باشتقاق

(١) الفن الإسلامي في إسبانية: مانويل جوميث مورينو، ترجمة د. لطفي عبد البديع ود. السيد محمود عبد العزيز سالم، الدار المصرية، القاهرة، (دون تاريخ)، ٤١١.

الفن المشرقي أولاً، ثم بتنمية الابتداعات الأصيلة في فترات متلاحقة لا يبلغها بحثنا هذا، وإنما نقتصر على ما كان أقدمها عهداً وما نجا من الضياع والتلف فهو يكفي لحسن الحظ لتزويدنا بالاتجاهات البارزة لهذا الفن في شتى أنواعه من صناعة الأقمشة ذات الزخرفة المنسوجة إلى الحلل البغدادية وصناعة الأقمشة والأقمشة الملونة والمخططة إلى فرع آخر هو الموشى في طرف النسيج على ثبات ولا يكاد يفوقه تطريز».

وتحدث عن الأقمشة ذات الزَّخرفة المنسُوجة، وقال إنها: «تتسّمُ بنفس الخصائص من حيثُ المتانةُ في طريقة صناعتها وإنْ كانت تفوق غيرها من ضُروب الأنسجة في التلوين والمقاومة بفضل استخدام الحرير بدلاً من الصوف مع دقة العمل الفني. ولعل النشاط الخاص بهذه الصناعة بلغ أوجهُ الفني على عهد الخلافة القُرطبية[1] في مصنع البلاط الذي زوده عبد الرحمن الأوسط بعناصر مشرقية، وينكشفُ لنا عن تحفة دلت عليها الوثائق هي مئزر هشام بن الحكم الذي ظهر في سان استبان دي جورمت، والمحفوظ في الجمعية الملكية للدراسات التاريخيّة».

صناعة الحرير

في المؤلّفات التي تُعنى بتاريخ العلوم وتطبيقاته يذكرون أنّ الصين احتفظت بسر صناعة الحرير أكثر من ألفي عام.

وعرف أهل الشام في صدر الإسلام صناعته عن طريق الصينيين وقد وصلت الدعوة إليهم ودخل ناس كثير منهم في الإسلام، ونمت التجارة بين الشرق الأقصى وبلاد المسلمين حين كانت دمشق عاصمة الدولة الإسلامية.

---

(١) كذا فيه، والحق أن هذا كان في عهد الإمارة قبل أن تُعلن الخلافة، وهذه الأحداث الفنية التي يذكرها المؤلف كانت في أوائل القرن الثالث الهجري.

وعرف أهل الأندلس صناعة الحرير في وقت مبكر أيام الحكم الأموي هناك، نقلاً عن صناعيّي الشام (وخاصة أهل دمشق).

وما لبثت صناعة الحرير أن انتقلت من أهل الأندلس الذين برعوا في هذه الصناعة وتفنّنوا ودخلت أوربة من هناك[١].

- وحين أشار د. بهنسي إلى الصناعات المختلفة التي نشأت في الأندلس في العصر الأموي قال:[٢]

«وفي عهد الأمويين ظهرت صناعات جديدة في الأندلس كصناعة الحرير التي انتقلت من الصين عن طريق أهل الشام..».

وأضاف: «إن هناك مفردات في اللغة الإسبانية ما تزال باقية فيها دالة على الأثر الشامي الدمشقي مثل Damassé وتعني القماش المشجّر المدمشق».

الوشي الهشامي، الوشي الشامي

أورد ابن حيّان في المقتبس[٣] أخبار بعض أفراد الأسرة الأمويّة بالأندلس، وفيهم الملقب (دَحّون) واسمه حبيب، وقد أفرد ابن حزم في جمهرة أنساب العرب مكاناً خاصاً لهذا الفرع (الحبيبيّ) من بني أميّة[٤].

وقد جاء ذكر الوشي (الثياب الموشاة بطراز خاصّ) في المقتبس بصفة (الهشامي)[٥]، ووصل إلى المقري فذكره في النفح باسم (الوشي

---

(١) يراجع: المورد: ٩/ ٥٤-٥٥. الشام لمحات آثارية وفنية: د. عفيف بهنسي، ٣٣-٣٤. تاريخ العرب: فيليب حتي، ٣/ ٥٩٢.

(٢) الشام الحضارة: ٧٨.

(٣) المقتبس: ابن حيّان، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٩٣-١٩٧٣.

(٤) جمهرة أنساب العرب، (الحبيبيّون: ٨٩).

(٥) المقتبس: ٩٤ والحاشية، ونفح الطيب: ٢/ ٥٠٣.

الشامي) وبعض الصفتين من بعض. والصّواب عندي ما ورد في أصل (المقتبس): الوشي الهشامي، فإنّ في كتاب (مُروج الذهب) عند سيرة هشام بن عبد الملك: أنه كان يعمرُ الأرض، ويستجيدُ الخيل، وقال إنه: أقام الحلبَة فاجتمع له أربعة آلاف فرس... وإنّه استجاد الكُسى والفُرش..

وقال مُتابعاً بعد كلام: «وفي أيّامه عُمِلَ الخَزّ، وقُطُف الخَزّ...».

وعبارة (الوشي الهشامي) تقتضي أن يكون النَّسّاجون في الشّام وخارج الشام أيام بني أمية وبعد أيامهم قد توارثوا أنواعاً من الوشي من ملبوس أهل الشام عُرِف بالوشي الهشامي، وكلام (مروج الذهب) يُساعِدُ على هذا الفهم، ويؤكد صوابه.

ونرجع إلى الخبر:

- قال ابنُ حيّان[1]: «كان الشريف دَحُون بن الوليد واسمه حبيب بن الوليد بن حبيب، الداخل إلى الأندلس ابن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان.

ودحُون لقبٌ غلب عليه، ويكنى أبا سليمان وكان من سراةٍ بني مروان بالأندلس، وعُلمائهم وأدبائهم، ووُلد أيّام الأمير عبد الرحمن الداخل في حياة جده حبيب بن عبد الملك الداخل أيضاً، وجدّه الذي رباه وأدبه، إذ توفي أبوه الوليد في حياة أبيه، فكفله بعده جدّه حبيب الذي هو والد جماعة هذا البطن الحبيبي من بني أمية بالأندلس، فنشأ حبيب دحّون هذا فيهم فقيهاً فاضلاً عالماً أديباً شاعراً مُحسناً. وكانت له رحلة إلى الشرق في أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم حج فيها ولقي علية أهل الحديث، فكتب عنهم، وقدم إلى الأندلس بعلمٍ كثيرٍ فذهب إلى نشره، فكان يتحلّقُ

(١) المقتبس: ٩٤-٩٥.

في المسجد الجامع بقرطبة وهو يلبس الوشي الهشامي وما شاكله، فتكاثر الناسُ عليه..» إلى آخر الخبر.

دَحُون ابن بَجْدَتها... ابن الشام[١]

وفي أخبار دَحّون خبر طريف وقع له في دمشق، حين قصد إلى المشرق وقد روت هذا الخبر إحدى فقيهات الأندلس ومن أهل العلم والرواية عبدة بنت بشر بن دحّون، عن أبيها بشر، قال:

«دخل أبي دَحُون إلى مدينة دمشق، وطنهم الأقدم، في رحلته إلى المشرق، وعاملها يومئذ لأبي إسحاق المعتصم عمرُ بن فرج الرُّخَّجي، مولى بني العباس، فاتفق أن وافق كونُه بها أيام غلاءٍ نزل بأهلها وارتفاع سعرٍ ضجّوا منه، فأخذ الرّخجي بضبطهم بأنْ أمر بإزعاج من عندهم من الطارئين عليهم من أهل البلاد والغرباء، وجعل على كلّ مَنْ أُخِذَ من أبناء السّبيل بعد انقضاء الأجل الذي ضربه لهم أشدّ العقاب [قلت: زاد المقّري حين روى الخبر أنّ قَحْطاً كان قد وقع اضطر الوالي إلى تحديد سُكان دمشق بأهلها الأصليين][٢] فابْتَدر الغرباءُ الخروج عنها، وأقام دَحُون لم يتحرك، فجيء به إلى الرخجي بعد الأجل، فقال له: ما بالك عصيتَ أمري؟ أوَما سمعت ندائي؟ فقال له دَحُون: ذاك قُدِر لأني ابنُ بَجْدَتها[٣]! وانتَمى له[٤].

قال الرّخجي: صدقت والله! ما أنتَ فيها بغريب، وإنّك لأحقّ بالإقامة فيها منّا! فأقِمْ ما أحْبَبْتَ. وانصرف إذا شئت!..».

---

(١) المقتبس، بيروت، ٩٥.

(٢) عبارة المقري في نفح الطيب: ٢/٥٠٣-٥٠٤.

(٣) البجدة: حقيقة الأمر وباطنه، وهو ابن بجدتها: العالم بالشيء المتقن.

(٤) ذكر اسمه ونسبته الأموية، وانتماءه إلى دمشق عن طريق أجداده!

من الأزياء الشامية إلى الخيمة البدويّة

في كتاب صدر منذ نصف قرن أو يزيد سجل باحثان إسبانيّان أن «العديد من النساء الأندلسيات حافظْن على الزيّ العربيّ المحتشم لدى خروجهن من بيوتهن حتى سنواتٍ خلت» وذكرا عدداً من الأماكن في (أندلوثيّا) مثل مجاقر mujacar وطريف Tarifa وبَلّش velez de la frontera القريبة من قادس cadiz، فإن من زار هذه القرى قبل نصف قرن شاهد نساءها يتجوّلن خارج بيوتهن مرتديات العباءة العربية والخمار، كما أن صورهن قد ظهرت في بطاقات بريدية قديمة[١].

وقد ذهب أثر الأزياء العربية بعد نُزول المرأة إلى العمل وانحسار (التقاليد الموروثة). وقد أشارت أ. سلمى الحفّار إلى ما شرعت فيه وزارة التربية والتعليم في إسبانية منذ سنة ١٩٨٦ تخليداً لذكرى خلفائها الأمويين الذين أسسوا فيها ملكاً حضارياً عظيماً - والعبارة للأستاذة - لقد شرعت في دعوة المتفوقين من طلاب مدارسها الابتدائية لقضاء أسبوع في مدينة (الزهراء) الأثرية، المجاورة لقرطبة، وذلك في أثناء عطلة المدارس الصيفية، وجعلت هؤلاء الأطفال يُقيمون في خيام عربية نصبتها لهم، فوجاً في إثر فوج، ويشاهدون مسرح العرائس في الأمسيات، وهم يرتدون أزياءً عربية مُقَدّمة لهم خصيصاً لكي يروا فصولاً من الحُكم العربي الأموي في مدينتهم، ويتعلّموا نُبَذاً عن تاريخه الذي أسس حقبة مهمّةً من تاريخ بلادهم المجيد».

وعلّقت الباحثة الفاضلةُ على هذا، (وهو غريب عن تاريخ مدّته خمسة قرون بعد سقوط غرناطة) وقالت[٢]:

---

(١) الأستاذان الباحثان هما: غيرترود ريتشارت Gertrud Richart وخوليوكورتيس Juluo Cortés، ونشر الكتاب (إسبانية) سنة ١٩٥٤، (بصمات عربية): ٢٨-٢٩.

(٢) المرجع السابق: ٢٩-٣٠.

«إنه ابتكار جديد يدل على تمسّك الإسبان بذلك التاريخ واعتزازهم بأمجاده، وتقديرهم لخدماته للعلم والفن لأنه أضحى جزءاً مهماً من جُذورهم العريقة..».

ونوّهت بالانفتاح الواسع على تعلم اللغة العربية والتاريخ الإسلامي والأدب الأندلسي في المدارس والجامعات الإسبانية.

(البياض) شِعارٌ شاميّ - اندلسي

في سنة ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) خرج السُلطان الغرناطي أبو الحجّاج يوسف بن نصر (حكم من ٧٣٣ إلى ٧٥٥هـ) في رحلة داخل مملكة غرناطة لتفقد أحوال الثغور الشرقية للمملكة، ومعه وزيره لسان الدين بن الخطيب، قال محقق نصّ أندلسي يصف الرّحلة[١]:

«ويصل الركب إلى مدينة وادي آش أو وادي إش Guadix في شمال شرقي غرناطة، وهناك يستقبلهم الأهالي استقبالاً رائعاً بملابسهم البيضاء، وهو الزي التقليدي لأهل الأندلس عموماً منذ أيام الأمويين..».

وعبارة لسان الدين في رسالة: (خَطْرة الطَّيف في رحلة الشّتاء والصيف) المشار إليها هي[٢]:

«فرأينا تزاحم الكواكب بالمناكب؛ وتدافع البُدور بالصّدور، بِيْضاً كأسراب الحمائم، مُتَلَفّعات بروضهنّ تلفّع الأزهار بالكمائم..».

فقد نقل أهل الشام معهم إلى الأندلس شعار بني أميّة وهو البياض، وثبتوا عليه، خُصوصاً بعد رفع العبّاسية شعار السّواد، واتّخذ الأندلسيّون

(١) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس: د. أحمد مختار العبادي، ٨.

(٢) المصدر السابق: ٢٨، في الشام اليوم يقولون: تَلفّحَت (بالحاء) وصوابُها بالعين.

البياض شعاراً للحزن أيام الحِداد بدلاً من السَّواد، ونقرأ لابن شاطر السُّرقُسْطِيّ الأندلسي[١]:

قد كنتُ لا أدري لأيّة عِلَّةٍ صار البَياضُ شعارَ كُلّ مُصَابِ
حتّى كساني الدَّهرُ سَحْقَ مُلاءةٍ بيضاء من شيبي لِفَقْدِ شبابي!
فَبِذا تَبيَّنَ لي إصابةُ مَنْ رأى لبسَ البَياض على نوى الأحباب!

قال المقري في نفح الطيب معلّقاً على الشعر السالف: «وهذه عادة أهل الأندلس ولهذا قال الحصري[٢]:

إذا كان البياضُ لباسَ حُزْنٍ بأندلس فذاك من الصَّوابِ
ألم ترني لبست بياض شيبي لأنّي قد حزنتُ على الشباب؟»

واستشهدت الأديبة الشامية سلمى الحفّار على الشعر المذكور، وهي تذكر حدادها على فقد والدتها[٣]:

«لبست ثياب الحداد أُسوة بأخواتي مع أنني كنت وما زلتُ أعترض على ارتداء الثياب السوداء التي اقتبسناها عن الفُرس، فأنا أوثر البيضاء في حالات الحزن على سنّة المسلمين الأوائل والأندلسيين من بعدهم.. وذلك بدليل قول الشاعر...».

ونَصَرَ ابن حزم الرّايات البيض الأندلسية (وأصْلُها أمويّ) على السُّود العباسية في شعر غزليّ (نفذ فيه إلى التاريخ ببراعة)، قال[٤]:

ومُذْ لاحت الرّايات سوداً تَيقّنت نفوس الوَرى أنْ لا سبيل إلى الرُّشْدِ

---

(١) نفح الطيب: ٤/١٠٩.
(٢) نفح الطيب: ٤/١٠٩.
(٣) بصمات عربية ودمشقية: ٦٥.
(٤) البيت هو آخر قطعة لابن حزم، انظر تعليق أستاذنا الدكتور عمر فروخ في تاريخ الأدب العربي: ٤/٥٣٨.

يفضل البيضاء الشّقراء على السّمراء السّوداء!..

- وفي نفح الطّيب أيضاً: قال بعضهم في لباس أهل الأندلس البياض في الحُزن مع أنّ أهل المشرق يلبسون فيه السواد[١]:

ألا يا أهل أندلسٍ فَطِنْتُم   بِلُطْفِكُمُ إلى أمرٍ عجيبِ
لبِستُمْ في مآتمكمْ بَياضاً   فَجئتُمْ منه في زيّ غريبِ
صَدقتم فالبياضُ لباسُ حُزنٍ   ولا حُزنٌ أشدُّ من المشيبِ!!..

- ومن أطرف ما قرأت في رفض لُبْسِ السّواد شعاراً: (لباساً رسميّاً واحتفالياً - بروتوكوليّاً-) وتفضيل البياض عليه، ما ورد في أخبار الإمام الأوزاعي ﷺ، وفيه أنه:

دخل على أبي جعفر المنصُور، في خلافته، فلمّا أراد أن ينصرف استَعفى من اللّباس[٢]، فقد كان الدّاخلون على الخليفة وغيره من أهل الدولة يلزمون بلبس السّواد شعار العباسيّين، فأجابه المنصور إلى ما طلب وسمح له بعدم لبس السواد، فلمّا خرجَ الأوزاعيُّ سُئل عن سبب رفضه السّواد فقال:

«- لم يُحْرِم فيه مُحْرِم (يعني بحجّ أو عُمرة)؛

- ولا كُفِّنَ فيه مَيّت؛

- ولم يُزَيَّنْ فيه عروس!»[٣]

---

(١) نفح الطيب: ٣/ ٤٤٠.

(٢) يعني من ارتداء اللباس الرسمي للدولة العباسية وهو السّواد، كانوا يأخذون الناس بلبسه (يجبرونهم عليه) فلهذا استأذن الأوزاعي.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٧/ ١٢٦.

قلت: في اللغة: العَروس: المرأةُ مادامت في عُرسِها، وكذلك الرجل. وهم عُرُس، وهنّ عرائس (ما يقال اليوم أيام الفرح) والعروسة: الزّوجة مادامت في عُرسها. ومما زاده المعجم الوسيط: العريس: الزوج مادام في إعراسه (مُحْدَثة).

انتهى.. ولله دَرُّه!

- وعلى ذكر استحسان لبس البياض، فقد اشتهرت عبارةٌ هي في نفح الطيب[١]، نقلها عن الصفدي[٢]، وهي:

«قال بعض الأدباء: من لَبِسَ البياض، وتَخَتَّم بالعقيق، وقرأ لأبي عمرو[٣] وتفقه للشافعي، وروى شعر ابن زيدون[٤] فقد استكمل الظَّرْف».

(١) نفح الطيب: ٣/٥٦٦.
(٢) الوافي بالوفيات: صلاح الدين الصفدي، ٧/ ٩١.
(٣) هو أبو عمرو الدّاني الأموي الأندلسي (عثمان بن سعيد: ٣٧١-٤٤٤هـ) أحد الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره ومعانيه وطرقه، وإعرابه، وهو مقرئ متقدّم. قال ابن بشكول: والقرّاء خاضعون لتصانيفه واثقون بنقله في القراءات والرسم والتجويد والوقف والابتداء.. إلخ وله مئة وعشرون كتاباً مؤلفاً.
(٤) هو أبو الوليد (أحمد بن عبد الله بن زيدون) أحد كبار شعراء الأندلس (ت٤٦٣هـ) وله ديوان شعر مشهور، ورسالتان مطبوعتان أيضاً باسم الرسالة الجديّة والرسالة الهزلية.

من عناصر الطبيعة
بين الشام والأندلس

هل دخَلْتَ داراً دمشقيّة تقليديّة؟ إنْ كنتَ دخلت داراً من تلك الدُّور كان لك أن تجلسَ تحت عريشةٍ (شجرة عنب) أو أن تستظل بظلِّ شجرةٍ من الأشجار المثمرة، من:

- الكَبّاد

- والنّارنج

- والليمون

- والبُرتقال؛ (ولهذه الفواكه ذِكرٌ بعد قليل فيما نقله العرب إلى الأندلس)

- والمشمش الهندي (أكّي دنيا)

- وغيرها، فقد تجد شجرة مشمش أو خوخ أو سفرجل، أو درّاق، وقد تجدُ شجرةَ توتٍ إذا كانت أرض الدّيار (الدار) واسعة.. أو شجرة تينٍ مُظَلِّلة..

ولو أتيح لك أن تزورَ المسجد الأمويّ في قرطبة (وستكون سعيداً لو أسعفك الحَظُّ بذلك)، لرأيت في صحن الجامع شجراتٍ باسقاتٍ من

شجر البُرتقال والنّارنج[١]، وقد رأيتُها شامخةً ماثلةً مثمرةً حين زُرْتُ ذلك المسجد العظيم صيف سنة ١٩٧٦.

وعلى الرغم من الوجود العربي الطّويل في الأندلس أيام الفينيقيين، والنفوذ الشامي العتيق هناك فإنّ انتقال الأشجار المثمرة والنّباتات والأزاهير المشهورة في بلاد الشام كان على أيام عبد الرحمن الداخل، وبعضُه على أيام من جاء بعده من أولاده وأحفاده الأمويّين.

وفي كتاب خوان فيرينت الذي ترجم بعنوان (فضل الأندلس على ثقافة الغرب)[٢] إشارات دالة على ما انتقل من الفواكه والخضراوات والأشجار وغيرها[٣] من الشام خاصة، ومن غيرها في أقطار الإمبراطورية العربية الإسلامية. وممّا يرتدّ إلى النقل - والجلب - عن الشام:

١- القطن (في إسبانية Algodón) قال: وأصله من الهند ومع أنه كان معروفاً منذ القديم فإنه لم يُصبح واسع الانتشار إلا عندما أدخل العرب زراعته إلى الأندلس، ومنها انتقل إلى إيطالية وفرنسة، وإلى منطقة الفلاندر، وألمانية وإنكلترة..

وسلكت الطريق ذاته:

---

(١) خالف أهلُ الأندلس مذهب مالك، وهو المذهبُ السائد في الأندلس، (بعد مذهب الأوزاعي الذي انقضى هناك بدخول المالكيّة) في أربعة أمور، منها أنهم أجازُوا غرس الشجر في المساجد، وهو مذهب الأوزاعي (ينظر: المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفُتيا: لأبي الحسن المالقي الأندلسي، ٥١). وقد سبق الكلام على الإمام الأوزاعي ومذهبه.

(٢) نقله عن الإسبانية: نهاد رضا، ونُشِرَ بعناية أ. فاضل السّباعي في دار إشبيلية - دمشق (وهو صاحبها)، ط١، دمشق، حزيران ١٩٩٧.

- وقد ترجمت أ. سلمى الحفار العنوان بعبارة: «بِمَ تدين الثقافة لعربِ إسبانية»: بصمات، ٤٦.

(٣) ٤٤.

٢- السبانخ

٣- والباذنجان

٤- والأرضي شوكي[١]

٥- والبطيخ الأحمر

٦- والمشمش

٧- والليمون

٨- والرزّ[٢]

٩- والتين البرّي

١٠- والزّعفران..

قال: وإذا كان بعض هذه المنتجات مُستعملاً حقاً في العالم المسيحي قبل التوسّع العربي؛ فإنه بفضل هذا التوسّع، وحسب، أُتيح لها أن تكتسب شعبية، وأن يُشرع في زراعتها المنتظمة، مع ما ترتب على ذلك من تأثيرٍ لاحق في فن الطبخ.

١١- والهليون: ويرد أيضاً باسم الإسبرج والإسفراج. قال الدكتور مؤنس إن ضيعة أرانخويت القريبة من مدريد (مجريط العربية) تشتهر بثلاثة أمور: «البلابل الطليقة على الأشجار والفراولة (الفريز أو توت الأرض)،

---

(١) كذ، والصّواب: الخَرْشف، أو الخُرْشف، أو الخرشوف. وعبارة: (أرضي شوكي) الشائعة عن هذا النوع من الخضراوات محرّفة عن الأجنبية artichouf التي هي محرفة عن الخرشوف!.. فالكلمة عربية ساحت في لغات الناس!
- وانظر قريباً، في الموسوعة الشامية (دار الفكر) معجم المأكل الشامية.

(٢) جعل د. شاكر مصطفى الرز والصنوبر من الزراعات التي أدخلها الفينيقيون إلى تلك البلاد (الأندلس في التاريخ: ١٠) وهو على كل حال أثر شامي قديم.

والإسفراج. والعرب هم الذين أدخلوه إسبانية»[١].

ونقرأ في أخبار زرياب عِنايته بالهَلْيُون على موائد الأندلسيين، في جملة ما أطرفهم به من معرفته بالطعام وألوانه[٢].

واتسّعَتْ دائرةُ النّباتات والأشجار التي نُقلت من الشام إلى الأندلس فتمت هناك، وازدهرت، وانتشرت، وتفوقت أحياناً على مصدرها الأصلي لشدّة عناية الأندلسيين بالفلاحة.

وفي بحث (أثرنا في إسبانية) كلام على «عبقرية الفكر العربي في الأندلس» التي تجلّت في أكثر من ميدان، وعدّدت الباحثة أ. سلمى الحفار قضايا الفكر والعلم والثقافة واللغة والأدب، والعمران والصنائع والطب والصيدلة وغير ذلك إلى أن قالت[٣]:

«وتخطّت هذه الميادين جميعاً فاشتملت على أحدث وسائل الزراعة والريّ وأنجحها، فاخضرت في الأندلس السهول والقفار، وأزهرت فيها البساتينُ والهضاب إذ نقلَ أسلافنا إليها أشجاراً من الشرق العربي كالزيتون والليمون والنارنج، ونباتات كالزعفران، وأزهاراً كالياسمين والرَّيحان والخُزامى، ولم تزل أسماؤها جميعاً عربيّة في لغة الإسبان حتّى يومنا هذا...».

---

(١) رحلة الأندلس: ٣٦-٣٧.

(٢) هناك دراسة مستقلة عن زرياب للدكتور محمود الحفني في سلسلة أعلام العرب. وانظر تفصيلاً طريفاً عن أثر زرياب في الموسيقا والمطاعم والمشارب وهيئة اللباس إلى غير ذلك في (الحضارة العربية في إسبانية: ٦٦ وما بعدها).

(٣) في ظلال الأندلس: ٦٣-٦٤، و«أثرنا في إسبانية» محاضرة ألقيت في قاعة المنتدى الاجتماعي في دمشق ١٥/ ١١/ ١٩٦٥، وأدرجت في الكتاب المذكور.

النَّخْلُ في الأنْدَلُس... ونَخْلَةُ عَبْدِ الرَّحمن!

حين وصل بالنثيا[١] إلى الكلام على الشعر الفصيح في الأندلس مرّ على عبد الرحمن الدّاخل الذي بقي من شعره قطعٌ وقصائدُ قليلة. وقال: «وكان الأُمراء الأندلسيّون أنفسُهم يقولون الشعر، ومن أمثلة ذلك أن عبد الرحمن الداخل رأى نخلةً في حديقة (قصره الرُّصافة) - ولابد أنّها كانت أول نخلة زرعت في أُوربة - فهيَّجت شجنه فقال[٢]:

يا نخْلُ أنتِ غريبةٌ مِثلي ... في الغَرْب نائيةٌ عن الأهلِ
فابكي وهل تَبكي مُكبّبةٌ ... عَجْماءُ لم تُطبعْ على خَبْلِ؟
لو أنّها تبكي إذن لبكَتْ ... ماءَ الفراتِ ومَنبتَ النَخلِ
لكنّها ذَهِلَتْ وأذْهلها ... بُغضِي بني العبّاسِ عن أهلي!

وكانت هذه النّخلةُ كما استَظْهر المُؤَرّخُ الإسباني أوّل نخلةٍ زُرعت في الأندلس بترتيب من عبد الرحمن الذي قصد عامداً إلى تجديد كلّ ما يستطيعهُ من رسوم أهله وأجداده، وبني وطنه القديم (الشّام)، ومن ذلك استجلابُ كلّ ما يمكن نقلهُ وزَرْعُه من مزروعات المشْرِق (وغيره) من الفواكه والخضراوات والأشجار ونباتات الزّينة. وكان في ذلك شجرةُ النّخلِ التي كان يأنس بها ويستريح في ظلالها. وكانت الشامُ عامرةً بأنواع النخيل، واسم تَدْمُر: (بالميرا) يدلّ على ذلك، فما بالك بضفة الفُرات المُمتدّة، وبادية الشام الواسعة؟ (انظر ما كتبناه في مادّة (الرصافة) عند مشاريع عبد الرحمن العُمرانية).

ويؤكد خبرَ نَخْلِ الأندلس وأنَّ أصله مجلوبٌ من الشام ما ورد في

---

(١) تاريخ الفكر الأندلسي: ٥١.
(٢) النص في الحلة السيراء لابن الأبار: ١/ ٣٧.

الحُلّة السّيراء وغيره[١]، وفيه أنّ هشاماً المؤيد بن الحكم وهب للحاجب المظفر بن أبي عامر الجنّة المعروفة بـ(ربنالش)[٢]. وقد علق أحد العارفين بقرطبة فقال: «إن هشاماً لضعيف، هذه الجنة المذكورة هي أول أصل اتخذه عبد الرحمن بن معاوية، قال: وكان فيها نخلةٌ أدْرَكْتُها بِسنّي (وكلامه في آخر القرن الرابع) ومنها توالدتْ كلّ نخلةٍ بالأندلس». وهي النّخلة التي ذكرها عبد الرحمن في شعره، تلك النخلة التي جدّدت له ذكرياته في المشرق، ونقلتْ إليه من هناك عبق المكان والزّمان، وشجن الذكريات.

ويبدو أنّ أخته أم الأصْبَغ - التي كانت شديدة الحنوّ عليه - كانت تبعث إليه بالأشجار (القابلة للزراعة) من الشام، ومن ذلك النّخيل، وغيره.

قال د. سالم: «واهتمّ عبد الرحمن بغرسها في مُنية الرُّصافة لتذكره برصافة جَدّه بالشّام..»[٣].

وفي أخبار عبد الرحمن أن أخته أم الأصبغ كانت تواصِلُه بالشجر والنّبات وكلّ ما كان يحبّه، وهو بالشام ويُفضّله، ويدخل في ذلك النخيل (وفي الكتاب إشارةٌ إلى هذه الأخبار).

الرُّمّان الشّفري

من شعر أحمد بن فرج الجيّاني قصيدة وصف فيها نوعاً من الرمّان

---

(١) الحلّة: ١/ ٣٨، وانظر لـ: (نخلة عبد الرحمن) مادّة الرُّصافة في هذا البحث.

(٢) ظاهر أن الأمر طلبٌ من الحاجب، وليست القضية إهداء، فقد اشتط محمد بن أبي عامر وأولاده من بعده في طلباتهم من الدولة، ووصل آخرهم إلى أن يتنازل هشام له عن الدولة الأموية، ويجعله ولي عهد! ومن ثمّة كانت بدايات عصر الفتنة الذي حطم الدولة، وأهلك الأندلس جملةً.

(٣) قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس: د. السيد عبد العزيز سالم، ١/ ٥٠-٥١.

اشتهر في الأندلس بالرُمّان السّفري، قال فيها[1]:

ولابِسَةٍ صَدفاً أحمَرًا ... أتتْكَ وقد مُلئت جَوْهرا
كأنّك فاتحُ حُقٍّ لطيفٍ ... تضمّن مَرْجانهُ الأحمرا
حُبوباً كمثل لثَاتِ الحبيب ... رُضاباً إذا شئتَ أو منظرا
وللسَّفر تُعزى وما سافرت ... فتشكو النوى أو تُعاني السّرى
بلى! فارقت أيْكَها ناعماً ... رطيباً وأغصانَها نُضّرا
وجاءتك مُغتاضةً إذْ أتتكَ ... بأكرمَ من عُودها عُنْصُرا
بعودٍ ترى فيه ماء الندى ... وبورقُ من قبلِ أن يُثْمِرا
هديّةَ مَنْ لو غَدَتْ نفسُهُ ... هَديّتَهُ ظنّهُ قصّرا!

فالشّاعر يرفع هديتَهُ من الرُمان السَّفري إلى رجل ذي مكانة ويصفُ له هذا الرمان، ويُعدّد من مزاياه: فالرمّانة السّفريّةُ لَبسَتْ صدفاً أحمر وقد مُلئت من الجوهر (الحبّ) الأحمر، وإذا سالَ ماءُ الرمّانة جرى في الطّيب كرضاب الحبيب. وينوّه الشاعر بهذا النوع الفاخر من الرمّان الذي يستحقُ أن يُهدى: فهو سَفْريّ وإن لم يسافر، ثم يستدرك: نعم عرفتْ نوى الفراق (والسَّفر) إذْ غادرتْ أغصانها.. ولكنها سعيدةٌ حين غادرت غُصْناً رطيباً نديّاً إلى رجل كريمٍ ذي ندىً (كرم) أيضاً... يقول: انتقلت من ندى الشجر والجو إلى ندى الرِّجال الكرام...

(١) الشعر في نفح الطيب: ١/ ٤٦٨.
وابن فرج هو أحد شعراء الأندلس في القرن الرابع (توفي سنة ٣٦٦هـ) ألّف كتاب (الحدائق) منافساً به كتاب (الزهرة) لابن داوود الظاهري البغدادي، والحدائق مفقود جمعت الباقي منه.
وانظر كتابنا (الحدائق والجنان)..

- ولي مع الرمّان السَّفري خبر، فحين كنتُ في مدينة وهران سنة ١٩٧٢م (في خريف تلك السّنة) سألت البائع يوماً عن الفَضْلِ بين نوعين من الرمّان الفرق في الثّمن بينهما كبير، فأجابني إن هذا الغالي الثمن: رمّان سَفري! وذهب بي الخيالُ بعيداً؛ فالذي أعرفه أن الرمّان السَّفري اسمٌ على نوع استُنْبِتَ في الأندلس أيام عبد الرحمن الداخل فأينَ أنا منه في المكان والزمان؟.. لقد وصل إلى بلاد المغرب من قديم، واستمر على حاله من الانتشار والاحتفاظ بعلامة الجودة!..

وقال ابنُ سعيد الأندلسي إنّ الرمّان السَّفري الذي فاض على أرجاء الأندلس وصاروا لا يفضلون عليه سواه، أصله من (الرصافة) الأندلسية، ونقل عن مؤرخ الأندلس ابن حيّان أنه الرمان الموصوف بالفضيلة، المقدّم على أجناس الرمّان بعذوبة الطّعم، ورقّة العَجم (البذر) وغَزَارة الماء (العصير) وحُسن الصُّورة. وكان رسول عبد الرحمن الداخل إلى الشّام لمرافقة أختيه إلى الأندلس، قد جلَب طرائف من بلاد الشام (هدايا بعثت بها إليه أُخته) منها من رمّان الرُّصافة المنسوبة إلى هشام (يعني من رصافة هشام في الشام).

ولما وَصلت الهديَّةُ - وكان يُعجبه الرّمان الشّامي - عرضه عبد الرحمن على أصحابه مباهياً به وأعطاهم منه. وكان فيمَنْ حضره سَفر بن عبيد الكلابي من جَند الأردن... فأعطاه من ذلك الرمّان جزءاً فراقَهُ حسنُه وخُبْرُه، فسار به إلى قريةٍ بكورةِ (ريّه) فعالجَ غَجْمَهُ، واحتال لِغَرْسه وغِذائه وتَنْقِيله (من الأُصص إلى الأرض) حتى طلع شجراً أثمرَ وأينع، فنزَع إلى عِرْقِه (جاء الرمّان المزروع في الأندلس موافقاً للأصل الذي وَرَد من الشام ومطابقاً) وأغرَب في حُسْنِه، فجاء به إلى عبد الرحمن فاستَبْرَع استنباطه، واستنبل همّته، وشكر صُنعه، وأجزل صلته. واغترَسَ منه بِمُنية الرّصافة وبغيرها من جَنّاته، فانتشر

نوعُه، واسْتَوْسَع الناسُ في غِراسِهِ، ولَزِمَهُ النَّسَبُ إليه، فصار يُعرف إلى اليوم بالرمّان السَّفري».

- وقيل في الرّمان السّفري: الرمّان الرُّصافي[١] نسبةً إلى بساتين عبد الرحمن في الرُّصافة التي أنشأها ووسّع بساتينها، وانتشر هذا النوع من الرمان منها إلى سائر بلاد الأندلس، وإلى خارجها أيضاً (بلاد المغرب العربي).

- وانظر مادة الرُّصافة: في هذا الكتاب.

التّين[٢]

اشتهرت بالتين الجيّد بلداتٌ ومواضع في الأندلس، ولكن أعلاها جودة تين مالقة (وهي مدينة عربية قديمة كانت قبل الإسلام) وكان تينها يصدر إلى أنحاء العالم القديم، وفي الأخبار الموثوق بها أن تين مالقة كان يصلُ إلى مصر والشام والهند والعراق.

واشتهر بيتان فيهما ذكر لتين مالقة، فيهما طرافة، نُسِبا إلى القاضي المحدّث الأديب أبي محمد عبد الله بن سليمان بن حوط الله الأنصاري، فحين تولّى هذا القاضي قضاء مالقة خرج العلماء والفقهاء وغيرهم لاستقباله فأنشدهم، من باب الإطراف، والدُّعابة:

---

(١) قرطبة في العصر الإسلامي: تاريخ وحضارة: د. أحمد فكري، ٢٧٦.
وقد استفاد من كتاب: تاريخ إسبانية الإسلامية: ليفي بروفنسال، ٣/ ٢٨٢.
- ومن الطريف، ونحن عند الرمّان السفري، أنني حدّثت زميلاً مغربياً يوماً (وكان معنا في جامعة عجمان) بحديث الرمّان السّفري، وقصّتي معه في وهران، فإذا به يقدّم لي في اليوم التالي رمانة حسنة من ذلك النوع، وقال لي: «خذها فإنني أحضرتُ معي من المغرب عدداً منها، وهذه لك»! فشكرتُه، وطارت بي الأحلام إلى أيام عبد الرحمن...

(٢) الرّوض المعطار في خبر الأقطار: الحميري، (مادة: مالقة).

مـالـقـةٌ! حُـيِّـيْـتَ يـا تِـيْـنَـهـا الـفُـلْـكُ مـن أجـلـكَ يـأتـيـنـهـا
نَـهـى طـبـيْـبـي عَـنْـكِ فـي عِـلّـتـي مـا لِـطَـبـيـبـي عَـنْ حَـيـاتـي نَـهـى؟!

البرتقال والليمون[١]

وهذان الصّنفان من الفاكهة نقلهما العرب أيضاً. قال أ. محمد كرد علي في خطط الشام: «ذكر علماء النبات أنّ موطن هاتين الشجرتين الأصلي في شرق آسية، وأنّ الفَضْلَ يعود إلى العرب في نقلهما إلى سواحل بحر الرّوم (الأبيض المتوسط)، وهما ينجبان في الغور (فلسطين) وسواحل الشام.. وأجْوَدُ أنواع البُرتقالِ اليافاويُّ[٢]..» إلخ.

قلت: ويتبع ذلك نقل النارنج والكبّاد، وهما أساسيان في صناعة المربّيات. وقد كانت صناعة السكر في جملة ما نقله العرب إلى الأندلس في العهد الأُموي.

الوَرْد

حين أُقيم معرض الزُّهور الأول في دمشق سنة ١٩٧٠ وقع الاختيار على الوردة الشاميّة rosa damascaena لتكون شعاراً للمعرض[٣].

والورود[٤] تُعَدّ أهمّ نباتات الزّينة والرياحين.. وهي تتفاوت في استعمالاتها: فهي عطرية، وطبية، وصيدلانية وغذائية وتجارية، ولا يغيب عن البال أنها جميعاً تشترك في الجانب الجمالي التزييني.

---

(١) خطط الشام: ٤/ ١٨١.
(٢) وهو إلى اليوم أشهر أنواع البرتقال: Java.
(٣) ورد الشام: ٥٨.
(٤) المرجع السابق: ١٥١-١٥٣.

ونتوقع أن تكون بذور الورود المفضلّة قد رحلت مع الذاهبين إلى الأندلس أو كانت في الموادّ التي كانوا يطلبونها، والمزروعات التي كانوا يتلطفون لنقلها إلى بلادهم. وفي نقل عدد من هذه النباتات والشجيرات والأشجار أخبار كثيرة مهمّة وفي بعضها غرابة. لكنّ هذه الواشجة الواصلة بين الأصل (المشرق) والفرع (الأندلس) كانت من القوّة بحيث تغلبوا على كثير من الصّعاب!

وعلى كل حال، فإن كتب النّبات، والدّواء، والغِذاء، وكتب الأدب: نثره وشعره سجّلت احتفال الأندلسيين بالورد وغيره من نباتات الزينة، وما يكون معها من منافع وفوائد. وقد انحاز كثيرٌ من شعراء الأندلس إلى جانب (الورد) ائتلافاً مع انتصارِ أجدادهم للورد وتفضيلهم إيّاه على غيره.

وكان ابنُ الرُّومي (وهو يمثّل ذوق بغداد وغيرها من نواحي العراق) قد أزرى على الوَرْد، ووصفَهُ وصفاً قبيحاً، وانتصر للنَّرْجِس[1]، وذاع شعرهُ في كتب الأدب والأشعار المُختارة، وأوّل قصيدة ابن الرومي[2]:

للنَّرْجس الفضلُ المبينُ وإن أبى آبٍ وحادَ عن الطّريقة حائدُ

وآخرها:

أين العيونُ من الخدودِ نَفاسةً ورياسَةً لولا القياسُ الفاسِدُ!

فالنّرجس تُشَبَّهُ به العُيون، والورد تُشَبّه به الخُدود، والعيونُ أعلى وأكثر أهمية - يقول ابن الرومي - من الخدود.

وقد تصدّى له أكثر من شاعر أندلسيّ امتثالاً للذّوق الأندلسي في

---

(١) «وكان أكثر الأندلسيّين يفضلّون الورد، ولكنهم لا يُزرون بالنّرجس، ولم نجدهم يسلكون سلوك ابن الرّومي الذي نصر النّرجس، ثم وصف الوردَ وصفاً قبيحاً». من ترجمة أبي عثمان سعيد بن فرج في (الحدائق والجنان): ٥٩.

(٢) ديوان ابن الرّومي: ٢/ ٦٤٣-٦٤٤.

تفضيل الورد وائتلافاً مع المورُوث الشامي في هذا الموضوع. ونقرأ لأبي عثمان سعيد بن محمد بن فرج الجَيَّاني من قصيدة له[١]:

عنّي إليك فما القِياسُ الفاسِدُ إلّا الذي أدّى العيانُ الشاهدُ

أزعمتَ أنّ الوردَ من تفضيلو خَجِلٌ، وناجِلهُ الفضيلةَ عانِدُ؟!

وفي هذه القصيدة:

الوردُ تيجانُ الربيعِ فأيّما الحـ ـنار الفَخار: مُتَوّجٌ أو ساجِدُ؟

(جعل الوردَ لارتقائه وعُلوّه كالملكِ المُتَوّج، وجعل النرجس لقربِه من الأرض كالعبدِ أو المُمْتَثِل السّاجد أمام الملك!..)[٢].

والقصيدةُ طويلةٌ، ومنها في نوعٍ من تفضيل الورد على النّرجسِ - وقد قدّم حُجَجاً كثيرةً في هذا الباب - قولُه:

وإذا فَخَرْتَ على الخُدودِ بِمُقْلَةٍ يَرَقَانُها بادٍ، فأصْلُكَ فاسِدُ!

الرَّيحان

وكما يعتني الدّمشقيون اليوم بأُصُص الرَّيْحان، في جملةِ ما يُعْنَوْن به من نباتات الزّينة العطريّة والجمالية كان أجدادُهم أيّام الأمويّين، وقبل ذلك في العُصورِ السّابقة للإسلام يُعْنَون بالرَّيحان، ويجمعونَ من ورقهِ ليكون في جملة الزهور والنّباتات التي يُستفادُ منها لأغراضٍ طبيّةٍ، أو لصناعةِ بعضِ أنواع البخور أو العطُور.

ونقرأ في كتاب (الورد في تراثنا الشّعبي)[٣]: «يندرُ أن نجدَ بيتاً في

(١) البديع في وَصْف الرّبيع: ٧٣.
(٢) الحدائقُ والجِنان من أشعار أهل الأندلس وديوان بني فرج شعراء جَيّان: ٥٩-٦٤.
(٣) ٩٩.

الشَّام ليسَ فيه زهرةُ الرّيحان[١] إنْ كان في الحوضِ أو المَسْكَبة، أو الأصص...».

وقد انتقلَ حُبُّ الرّيحان، وزَرْعُهُ، والعنايةُ به، والاستفادةُ منه إلى الأندلس فكان من مزروعاتهم هناك. وللرَّيْحان وجودٌ في الموشحات الأندلسية والأزجال، والأغاني الشعبية؛ وصار له مدلولاتٌ فولكلوريّة، ونقرأ لأستاذنا الدكتور عبد العزيز الأهواني في هذا المجال[٢]:

«وعلى حين أنّ الحديث عن الورد والياسمين والأقحوان والبَهار يكثر في قصائد الأندلسيين، وفي الموشحات نفسها، نجد الخَرْجات تميلُ إلى الحَبَق وإلى الحِنّاء وإلى الرّيحان خاصّة..».

وفي موشحة أندلسية، تجيء الخرجة على هذه الصورة[٣]:

بالله يا جَنّانْ[٤]	اجْنِ من البُسْتانْ	الياسمينْ
وخَلِّ ذا الريحانْ	بِحُرْمَةِ الرّحمنْ	للعاشقينْ!

فهو لا يبالي بالياسمين أن يُقطف ويُنْزَع، ولكنّه حريصٌ على الرّيحان وحده؛ لأنّ له عند المحبّين رمزاً.

- وقال ابنُ خاتمة في خَرْجَة أحد مُوَشّحاته:

على يمينْ لِبَيْمَهْ	وقُدّام رَيْحانَهْ
والعريش نَشّاغْ	قد عانَقْ لِرُمّانَهْ

(١) المراد: نبتة الرّيحان، فالانتفاع الأول بورقه. واستغربت في دولة الإمارات، في المطاعم العراقية وضع الرّيحان على المائدة كما نضع نحن النعنع، والزّعتر، والطّرخون.. ولم تكن تطاوعني نفسي على أكل الريحان!.

(٢) الزجل في الأندلس: ٢٣.

(٣) المرجع السابق: ٢٣، والخرجة في الاصطلاح هي آخر قفل في الموشح، وله أهمية كبيرة دائماً.

(٤) الجَنّان في الأندلس: البُستاني (قارن في الشام بـ: الجنيناتي).

وعلّق الدكتور الأهواني تحت الخَرْجَة[١]:

«كان الرَّيحانُ مشهوراً في حفلات العُرس حتى وَجَدنا من أمثالهم: أشهر من الريحان في دار العروس. وعند نساء الأندلس إلى اليوم، حِرْصٌ على الرّيحان وحفظ أجزاء منه بدعوى أنّه يقرّب الزَّوْج».

الزَّعْفَران[٢]

هو بالإسبانية Azafran نَقْلاً عن العربية، فقد كان العربُ همُ الذين أدْخَلُوا زراعة الزّعْفران إلى الأندلس[٣].

واسْمُ الزَّعفران العلمي هو: corcus (وظاهر أنّه من الكلمة العربيّة: الكُرْكُم) وهو من فصيلة السَّوسَنِيّات، وموطنُه - كما في موسوعة المورد - جبال الألب وحَوض البحر المُتَوسّط وآسية الغربيّة، وأوربة الجنوبيّة.

- وقد أسْرع في إدخالِه إلى الأندلس أنّ لِلزَّعفران وُجوهاً متعدّدة من الاستعمال في: تطييب الطّعام (فهو أعلى الأفاويهِ وأغلاها) وفي صناعة الدّواء، وفي الصَّبْغِ والتّلوين.. إلى غير ذلك.

- والزَّعْفَران الأندلسي (الإسباني) هو اليوم أغْلى أنواع الزّعفران وأعلاه جودةً، وأصلُه زراعةٌ عربيّة من أيام الدولة الأمويّة.

---

(١) الزجل في الأندلس: ٢٤. وانظر لِمُوَشّحة ابن خاتمة تامّةً: ديوان ابن خاتمة الأنصاري، ط٣، دار الفكر دمشق، وانظر في: الموشح والزجل كتابنا (في الأدب الأندلسي) طبع بدار الفكر - دمشق.

(٢) المورد: ٣/ ١٢٠، والجامع لمفردات الأدوية والأغذية: ابن البَيْطار، ١/ ١٦٢-١٦٣. وفيه: «من أسمائه الجاديّ، والجاد، والرّيهقان، والكُركم». قلت: الكركم (اليوم) يقال في: الوَرْس.

(٣) بصمات عربيّة: ٢٧.

- وبالمناسبة فإنّ معظم تقاليد الزراعة والريّ في الأندلس ترجع إلى ما أصّله العرب والمُسلمون في الأندلس.

ذيل لموضوع الزّراعة والنّبات...

من الآثار الباقية في الأندلس إلى اليوم، من تقاليد العصر الأموي في الأندلس، ما هو مشهور في مدينة بلنسية. وقد قرأت مقالة للأستاذ محمد عبد الله عنان كان نشرها في مجلة (العربي)، بَعُدَ عهدي بها، عن انعقاد محكمة المياه في بلنسية Tribunal de las Aguas؛ وذلك يوم الخميس من كل أسبوع، وهو اليوم الذي كانت تُعْقَدُ فيه هذه المحكمة أيّام الحكم العربيّ.

وعادت أ. سلمى الحفّار إلى الموضوع في محاضرة لها عن أثر العرب في إسبانية قالت فيها:

«وكذلك نجدُ أن أثرنا في إسبانية ما زال واضحاً في بعض التقاليد الاجتماعية، وفي الأدب والفنّ يوجد في مدينة بلنسية تقليد عربي قديم، احتفظ به سُكّانها حتّى يومنا هذا، وهو معروف باسم (محكمة المياه). إن حُبّ العرب للماء واهتمامهم بمدّ الأقنية وهندسة مشاريع الريّ لمن آثارهم الهامة التي انتفعت بها المدن، والقرى، والحقول. ومحكمة المياه هذه ما زالت تعقد جلساتها في بلنسية مرة كل أسبوع للفصل بين المزارعين في حالة خلافهم على حق الانتفاع بمياه الريّ العامة»[١].

قلت: وأصْلُ هذه الخبرةُ الشّامية الدمشقية[٢]، التي انتقلت في زمانٍ

(١) في ظلال الأندلس: ٩٥.

(٢) ينظر للاستزادة والإفادة: (علم المياه الجارية في مدينة دمشق): محمد حسين العطار الدمشقي، وملاحقه. تحقيق المحامي محمد غسان سبانو، دار قتيبة، دمشق ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

مُبَكّرٍ من أيام الدّولة الأموية في الأندلس، مع خبراء الريّ، فإن قسمة مياه بردى، وهي في الأصل محدودةٌ أو على قُدود الأراضي والمزارع كانت تتمّ بعلم خبراءِ المياه والريّ. وكان في بلدة (دومة) (بلدتي): هيئةٌ مخصوصةٌ لذلك، وكان اجتماعهم يتم في محل يعرف بـ(دكان البلد) وكان في البلدات والقرى والغوطتين مثل ذلك وما يُشبهه.

في الذاهب والباقي من التقاليد....

لابدّ أن يسأل الباحث، وهو يقلّبُ صفحات التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي في الأندلس؛ متسلسلاً مع العصور، ومع تتابع الأمراء الأمويين فالخلفاء؛ وبعد أنْ وصلت إلى الأندلسيين، بالوسائل المختلفة الكثيرة تقاليد عريقة، وذات أهمية من الشام:

- هل أثمرت هذه التقاليد ثمراتها في أهل الأندلس وأحوالهم؟

- وهل صبغت الأندلس، في العصر الأموي، على الأقل بصبغة شامية مؤثرة؟

- وكيف هُضمت هذه التّقاليد؟..

- ومن ثمَّ: كيف اندمجت مع العَناصر المؤثّرة الأخرى، مع مرور الزمن وخُصوصاً العناصر المحلية؟ لنضرب مثلاً:

إنَّ الموشح، فالزجل: من ألوان الأدب والفنّ (النّظم المرتبط بالموسيقا) من الفنون الّتي نبتت في الأندلس، وكانت نتاجاً لعددٍ من العناصر؛ منها حركةُ الشعر الأندلسي المرتبطة بالموسيقا والغناء، وعناية الأمراء الأندلسيين بالفنون عُموماً، وتنويعات زِرْياب المُوسيقيّة، وانسجام النّاظم الأندلسي مع أمْرين:

حركة الموسيقا الجديدة.

والتّقاليد الأندلسيّة الموصولة بالفُولكلور المحلّي الأندلسي[١].

لقد كانت التّقاليد الشّامية-كما استظْهرت هذه الدّراسة- أصيلةً في الحياة الأندلسيّة وعريقة، واستمرّت ظاهرةً، ومتحرّكة طَوال العصر الأمويّ، مع التطور الذي لابدّ منه مع الزّمن، ومع الاندماج التدريجي مع سائر المؤثرات الوافدة، إضافة إلى التكوّن الجديد للمُجتمع الذي صار أندلسيّاً: هَضَم التقاليد والثقافات، وشكّل صورةً أندلسيّةً لا تَخْفى فيها العناصِرُ الشّامية إلى أواخر حَياة العربيّةِ والإسلامِ في الأندلس.

- فهناك أُمور انتهتْ بانتهاءِ قُوّتها أو مناسبتها؛ كالتفاتِ الأندلسيين بالظّروف المعروفة إلى المذهب المالكي، وغياب مذهب الأوزاعي إلّا ما بقي في بحوثهم ودراساتهم.

- وهناك أُمور تحقّقت عمليّاً في التقاليد السياسية التي جرى عليها البيت الأموي وظلت علامة من علاماتهم ومزية من مزاياهم.

- وهناك أُمور استمرت مع الحاجة إليها، وبحسب ظُروفها مثل بناء المدن، والقرى والقلاع والحُصون، وبناء المُنى والقصور، وقد بدأ هذا محاكاةً من (الداخل) لجدّه هشام..

- وهناك أُمور تغلغلت في صميم الحياة الاجتماعيّة: في مآكلهم وملابسهم وعاداتهم المختلفة في المناسبات السّعيدة والحزينة، فصارت من قوام المُجتمع... وإن تناسى الناس في تلك المدّة المتباعدة من أين جاءت إليهم تلك العادات والتقاليد..

---

(١) كثرت الآراء في نشأة المُوَشّح الأندلسي. والذي لا شكّ فيه (وإن كثرت الأقوال) أنه أندلسيّ محض، وتَرْجُح نظرية أستاذنا الدكتور عبد العزيز الأهواني في ارتباط ظهور فن التوشيح بأمرين: الموسيقا والفولكلور المحلّي الأندلسي.
(انظر بحث الموشح في كتابنا: في الأدب الأندلسي- من منشورات دار الفكر- دمشق)

- وهناك الصِّلات التّاريخيةُ الموصولة في الأحساب والأنساب بين الصلة بالقبيلة، وبين الصلة بالمنشأ الشامي الذي جاء أجدادُهم منه..

- واستمرت أسماءُ عدد من البُلدن موصولةً بأسماء شاميّة أسبغوها عليها ولا ينسون شبه إشبيلية بحمص، وغرناطة بدمشق... إلخ.

ولنقفْ على سبيل المثال عند صفحاتٍ من مقدّمة كتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) للسان الدّين بن الخطيب، وفيه نقلاً عن الرّازي أحد مؤرخي الأندلس[١] أنّ غرناطة هي حاضرةُ (عاصمة) إلبيرة وقال في وصف بسيطها (أو سهلها): «وفَحْصُها لا يشبّهُ بشيءٍ من بقاع الأرض طيباً ولا شرفاً إلّا بالغُوطة: غوطة دمشق».

- وقال، نقلاً عن غير الرازي: «وفَحْصُها الأفْيَحُ المُشَبَّهُ بالغوطة الدّمشقية حديث الركبان، وسمر الليالي»[٢].

- وقال في صفة أهل غرناطة[٣]: «أحوالُ هذا القُطر في الدّين والعقائد أحوالٌ سَنِيّة.. وأخلاقُهم في احتمال المعاون الجبائيّة جميلة، وصُوَرُهُم حسنةٌ وأنوفهم معتدلة غير حادّة[٤]، وشُعورهم سودٌ مُرسلة، وقدودُهم متوسطة معتدلة إلى القِصَر، وألوانهم زُهر مشربة بحمرة وألسنتهم فصيحة عربيّة.. وتبصرهم أيام الجُمع كأنهم الأزهار المتفتحة في البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة...».

- ومن طرائف العادات الاقتصادية والاجتماعية في غرناطة[٥] تموين فواكه الصيف وخضاره وموادّه الغذائية إلى الشتاء: «وقُوْتهم الغالبُ البُرّ

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة: ١/ ٩٩.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٩٩.
(٣) المرجع السابق: ١/ ١٣٤.
(٤) يعني اعتدال أنوفهم، موافقةً للشكل العربي، أو الشامي خاصّة.
(٥) الإحاطة: ١/ ١٣٧.

(القمح) الطيّب عامّة العام، وربّما اقْتَاتَ الصَّنَعَةُ وأهلُ البوادي والفَعَلَةُ في الفِلاحة الذُّرَةَ العربيّة، أمثل أصناف القطاني الطيبة. وفواكههم اليابسة عامة العام متعدّدة؛ يدخرون العنب سليماً من الفساد إلى شطر العام، إلى غير ذلك من التّين والزّبيب والتفاح والرّمان والقَسْطَل [الكستنا] والبلوط والجَوْز واللّوز، إلى غير ذلك ممّا لا يَنْفَدُ، ولا ينقطعُ مدَدُهُ إلّا في الفصل الذي يُزْهَدُ في استعماله».

قلت: وكنّا، أيّام عِزّ العنب الدُّوماني نُبقي العِنَبَ إلى شهري كانون، وكان هذا مُستغرَباً، لكنّه كان يتمّ، وقد عايَشْتُهُ زماناً قبل ضياع ذلك النوع العالي من العنبّ.. وما أكثر ما ضاع في الغوطتين!.

- وذكر لسان الدين أحوال أهل غرناطة وأرباضها في انتقالهم في الموسم من المدينة إلى الرّيف، على صفةٍ ما تزالُ جاريةً في غُوطة دمشق وفي مُحيط الرّيف؛ فإنّ المهتمين منهم (يُرَحّلون) من البلدة إلى الحَقْل المقصود: كبساتين المشمش لصناعة القمر الدّين والنقوع وأنواع العصير والمربى، وبساتين الكُروم لِجَنْيِه وبيعهِ، ولصناعة الزّبيب، وغيره من الحلوى.. إلخ.

وقال[1]: «وعادَةُ أهل هذه المدينة (الانتقال) إلى حلل العصير أوان إدراكه - يَعْني في الموسم - بما تشتملُ عليه دورُهم، والبرُوز إلى الفحوص بأولادِهم...».

- وعادَةُ (الترحيل) من البَلْدة إلى الحُقول والبساتين تكون من أصحاب المال أنفسهم، أو من الضّمّانة الذين يَشْتَرون ثمرَ الشّجر، ويُقيمون في الحُقول إلى انتهاء الموسم!..

- وأختم هذه المُلاحظات في المقاربة بين أحوال أهل غرناطة

(١) الإحاطة: ١/١٣٨.

(ونحن مع لسان الدين في القرن الثامن الهجري، قبل غُروب الأندلس بقرنٍ ونصف قرن من الزمان) وأحوال أهل دمشق وما حَولها بقول لسان الدين[١]:

«وحَرِيمهُم حريمٌ جميل، موصوف بالسّحر، وتنعُّم الجُسوم، واسترسال الشّعور، ونقاء الثغور، وطيب النّشر (الرائحة الطيبة) وخفّة الحركات ونُبْلِ الكلام، وحُسْنِ المحاورة، إلا أنّ الطول يندرُ فيهن[٢]. وقد بَلَغْنَ من التَّفَنُّن في الزّينة لهذا العهد (زمانِه) والمُظاهرة بين المصبّغات (كثرة استعمال أدوات الزّينة) والتنافس بالذّهبيّات والدّيباجيات والتّماجُن في أشكال الحُلِيّ إلى غاية نسأل الله أن يَغُضّ عنهنّ فيها عَيْنَ الدّهر ويُكَفْكِف الخَطْب... إلخ».

ومن الطريف تعليقُ محقق الإحاطة؛ المُطّلع على تاريخ الأندلس، وعلى حاضرها، وقوله عند هذه الفقرة في الحاشية (وهو الأستاذ محمد عبد الله عنان):

«إنّ أوصاف ابن الخطيب لنساء مملكة غرناطة في عصره ما تزالُ حتّى اليوم ماثلةً في نساء غرناطة الإسبانية النصرانية مُثولاً قوياً يستلْفِتُ نظر كلّ من تجوّل في ربوع المدينة الأندلسيّة التالدة»..

ويلاحظُ القارئ المتابع مقاربة ما يصفُ به لسان الدّين نساء غرناطة وسائر منطقتها لما نَرى ونُعاينُ من حال المرأة الدّمشقية، وحالها فيما يُحيط بدمشق. (والكلامُ يَصْدُقُ على سائر الحواضر من مُدن الشام وبلدَاتِها بدرجات مختلفة)..

---

(١) المرجع السابق: ١/ ١٣٩.

(٢) للدكتور وجيه البارودي قطعةً يصف فيها فتاةً بالجمال لكنّه يأخذ عليها قصر القامة:

.... ولكنْ شانَها القِصَرُ

ثم أقُول:

لقد كان من الطّبيعي، ومن الائتلاف مع منطق التاريخ ألّا يستمر كلّ شيءٍ من عناصر (التقاليد الشامية) على الدَّرجة التي كان عليها في العصور الأُولى لقد كانت عواملُ الارتباط كثيرة، وذات مَددٍ مُتواصل (متفاوت مع الظّروف) وكانت هناك عواملُ أُخرى يصلُح فيها ظُهور: (الشخصيّة الأندلسية) التي كانت تزداد، وتكبرُ مع الزمن.

وإذا كانت العوامل السياسية والبشرية قد حَكَمتْ للأندلس بالاستقلال السياسي منذ عصر عبد الرحمن الداخل، فقامت دولةً بنفسها ذات غايةٍ ورايةٍ وثقافةٍ وشخصية فإنّ ارتباط الأندلس بالتقاليد الشامية خاصّة والمشرقية عامة كان مختلفاً: فمن ذلك شيءٌ بقي لأنّه تغلغل في حياة النّاس وفي وُجدانهم وشكّلَ جوانب من سِماتِهم، وقِسْمٌ تضاءل بعد أن استنفدَ أغراضه، وتنحّى لتحلّ محلّه عناصر أُخرى...

وقد اتضح التأثيرُ العظيمُ والاستلهامُ المتواصل أيام الدولة الأمويّة (إمارةً وخلافة). ومع عصر الخلافة كانت الأندلس منافسةً لدولة العبّاسيّين ودولة العُبَيديين، واكتملت للأندلس شخصيتها (الأندلسية) المركبة من عناصر مشرقية (شامية) خاصّةً، ومحليّة تولّدت من لقاء عناصر السكان وثقافاتهم.. ولولا انتهاءُ الدَّولة سنة ٤٢٤هـ (بعوامل مختلفة أهمّها تصرّفات محمد بن أبي عامر دكتاتور الأندلس) لكان للأندلس شأن آخرُ في جانب حضارة الإسلام من جهة، وفي جانب تفوُّقها على أوربة من جهةٍ أخرى.. والله غالبٌ على أمره.

تَوْدِيع بقطعة
من موشحة أمير الشعراء المعنونة

صقر قُريش:
عبد الرحمن الداخل*

أَيْــن يــا واحِــدَ مَــرْوانَ عَــلَــمْ
مَنْ دَعاكَ الصَّقْرَ سَمَّاه عُقابْ[1]

رايــةٌ صَــرَّفــهــا الــفَــرْدُ الــعَــلَــمْ
عن وُجوهِ النّصر تصريفَ النِّقابْ[2]

كــنــتَ إنْ جَــرّدْتَ ســيــفــاً أو قــلــمْ
أُبْــتَ بــالألــبــابِ أو دِنْــتَ الــرِّقــابْ[3]

---

* ديوان أحمد شوقي: ٢/ ٢٢٤. والموشحة على نسق موشحة ابن سهل الإشبيلي:
هل درى ظبي الحمى أنْ قد حمى قــلــبَ صــبٍّ حَــلّــه عــن مــكــنــسِ
التي جاراها لسان الدين في: (جادك الغيث) المشهورة.

(١) واحد مروان: الشهير فيهم: عبد الرحمن الداخل. الصقر: لقبه صقر قريش، والعُقَاب اسم راية النبي ﷺ وكانت مع خالد في فتح الشام، وكانت راية بني أمية في الشام والأندلس بيضاء كالعقاب.

(٢) الفرد العلم: عبد الرحمن، كان منصوراً في معاركه.

(٣) قلمه يسحر الألباب وسيفه يجزّ الرّقاب (رقاب العدو).

مـا رأى الـنّـاسُ سِـواهُ عَـلَـمـا
لـم يُـرَمْ فـي لُـجّـةٍ أو يَـبَـسِ[١]

أعَـلـى رُكـنِ الـسّـمـاك ادّعـمـا
وتَـغـطّـى بـجـنـاحِ الـقُـدُس[٢]؟

قَـصْـرُك الـمُـنْـيَـةُ مـن قُـرْطـبـةٍ
فـيـه وارَوْكَ ولـلـهِ الـمَـصِـيْـرْ[٣]

صَـدَفٌ حُـطّ عـلـى جَـوْهَـرةٍ
بَـيْـدَ أنّ الـدّهـرَ نـبـاشٌ بـصـيـرْ[٤]

لـم يَـدعْ ظِـلاً لـقَـصْـرِ الـمُـنْـيَـةِ
وكـذا عُـمْـرُ الأمـانـيّ قـصـيـرْ!

كـنـتَ صـقـراً قُـرَشِـيّـاً عَـلـمـا
مـا عـلـى الـصّـقْـر إذا لـم يُـرْمَـسِ[٥]

إنْ تَـسَـلْ أيـن قُـبـورُ الـعُـظَـمـا
فَـعـلـى الأفـواهِ أو فـي الأنـفُـسِ![٦]

---

(١) لا نظير له في البر والبحر (البلدان على اتّساعها).
(٢) السماك من أبعد النجوم في السماء، وهما سماكانْ.
(٣) كان عبد الرحمن قد دُفن في قصره لما توفي سنة ١٧٢هـ بقرطبة. والشّاعر يقول: إنَّ الزّمان مَحَا مكان قبره، ويعتذرُ لذلك كما سيأتي (في هذا الكتاب كلام على مباني عبد الرحمن..).
(٤) شبّه (الداخل) بالجوهرة وقَبْرَهُ بالصَّدَفة، لكنّ الزّمان طمس ذلك.
(٥) لا يعيبُ الصقر ألا يُدفن في قبر، ولا ينقص من قيمته!
(٦) قبور العظماء الحقيقية: ذكراهم الطيبة على ألسنة الناس، وتقديرهم العالي في قُلوبهم. (انظر لبحث الموشحات كتابنا: في الأدب الأندلسي - ط دار الفكر - دمشق).

في المصادر والمراجع

- الآثار السّورية (مجموعة أبحاث أثريّة تاريخيّة)، عدد من الاختصاصيّين السوريين (مؤسسة البريد الدولي، دار فورفرتس للطباعة، فيينا، أشرف عليها د. عفيف بهنسي) دون تاريخ.
- الآثار العربية الباقية في إسبانية والبرتغال، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بمصر، ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.
- الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنان، الخانجي ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- أخبار مجموعة في فتح الأندلس، وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم، مجهول، طبع مجريط بعناية الفونتي إلي القنطرة ١٨٦٧م.
- اختصار القدح المعلى = القدح المعلّى.
- الأسبلة العثمانية، محمود الحسيني، القاهرة.
- الإسلام في إسبانية، د. لطفي عبد البديع - النهضة المصرية - القاهرة: ١٩٦٩م.
- الإسلام في المغرب والأندلس، ليفي بروفنسال، ترجمة د. السيد عبد العزيز سالم وصلاح الدين حلمي، نهضة مصر ١٩٥٦.
- إشراقات أندلسية، د. عبد الفتاح عوض، مؤسسة عين للدراسات، القاهرة ٢٠٠٧م.

- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت.
- الأندلس في التاريخ، د. شاكر مصطفى، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٠م.
- أيام الثقافة الإسبانية في دمشق، ترجمة رفعة عطفة، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٣م.
- البديع في وصف الربيع، أبو الوليد الحميري، تحقيق هنري بيريس، الرباط، ١٩٤٠م.
- بصمات عربية ودمشقية في الأندلس، أ. سلمى الحفار، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢م.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري، مصورة في دار الثقافة، بيروت.
- تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي الأموي)، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر.
- تاريخ الأدب العربي، د. عمر فروخ، الجزء الرابع، دار العلم للملايين.
- تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، دار النشر للجامعيين، بيروت ١٩٥٧م.
- التاريخ الأندلسي، د.عبد الرحمن الحجي، دار القلم، دمشق ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م.
- تاريخ البحريّة الإسلامية في المغرب والأندلس، د. السيد عبد العزيز سالم ود. أحمد مختار العبّادي، دار النهضة، بيروت ١٩٦٩م.
- تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس (مجموعة من المؤلفين)، جامعة الموصل، د. ت.
- تاريخ قضاة الأندلس = المرقبة العليا.
- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة القرطبية)، د. السيد عبد العزيز سالم، دار المعارف، ١٩٦٢م.

- تاريخ الفكر الأندلسي، آنخل بالنثيا، ترجمة د. حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥م.
- تاريخ المغرب والأندلس، د. حسن أحمد محمود، دار الفكر العربي، القاهرة ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
- التجارة والتجار في الأندلس، أوليفيا ريمي كونستبل، ترجمة د. فيصل عبد الله، العبيكان، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- التذكرة الحمدونية، ابن حمدون، بكرعباس، دار صادر، بيروت ١٩٩٦م.
- ترصيع الأخبار، العذري الدلائي الأندلسي، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد ١٩٦٥م.
- الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ابن البيطار (مصورة).
- جمهرة أنساب العرب، ابن حزم، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، ١٣٨٢هـ-١٩٦٢م.
- الحدائق والجنان في أشعار أهل الأندلس وديوان بني فرج شعراء جيان، تحقيق محمد رضوان الداية، نادي زايد للتراث، أبو ظبي ٢٠٠٣م.
- حضارة العرب في الأندلس، عبد الرحمن البرقوقي، المكتبة التجارية مصر، ١٣٤١هـ- ١٩٢٣م.
- الحضارة العربية في إسبانية، ليفي بروفنسال، ترجمة د. الطاهر مكي، دار المعارف بمصر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- الحلة السّيراء، ابن الأبّار، تحقيق د. حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٣م.
- الحمامات الدمشقية، منير كيال، دمشق.
- خطط الشّام، محمد كرد علي، ط٢، مكتبة النوري، دمشق ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

- دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، د. الطاهر أحمد مكي، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م.
- دولة الإسلام في الأندلس (سلسلة التاريخ الأندلسي)، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة طبعة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، د. أحمد مختار العبّادي، الإسكندرية ١٩٦٨م.
- ديوان أحمد شوقي، تحقيق د. أحمد الحوفي، دار نهضة مصر - القاهرة (د. ت).
- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، تحقيق د. محمد يوسف نجم، دار صادر ودار بيروت، ١٣٧٨هـ- ١٩٥٨م.
- ديوان الرُّصافي البلنسي، د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٠م.
- ديوان ابن عمار الأندلسي، د. صلاح خالص، (د.ن + د.ت) بغداد.
- رحلة الأندلس، د. حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة، القاهرة ١٩٦٣م.
- رحلة ابن جبير، دار صادر، دار بيروت، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.
- الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان - بيروت ١٩٧٥م.
- الزجل في الأندلس، د. عبد العزيز الأهواني، معهد الدراسات (الجامعة العربية) ١٩٧٥م.
- زرياب، د. محمود الحفني، سلسلة (أعلام العرب)، القاهرة.
- ابن سعيد الأندلسي، حسن العبادي، النهضة المصرية، ١٩٧٢م.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي، بإشراف أ. شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، (أجزاء متفرقة).
- الشام - لمحات آثارية وفَنّية، د. عفيف بهنسي، وزارة الثقافة، بغداد ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

- الشرق الإسلامي والحضارة العربية الأندلسية، ليفي بروفنسال، تطوان ١٩٥١م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القلقشندي، طبعة مصورة (عن طبعة دار الكتب)، (+ الفهرس والمصطلحات).
- صفة جزيرة الأندلس = الروض المعطار.
- عادات الميلاد في مجتمع الإمارات العربية المتحدة وقطر والكويت، إسماعيل الفحيل وآمنة الحمدان، أبو ظبي.
- علم المياه الجارية في دمشق، محمد حسين العطار، تحقيق د. غسان سبانو، دار قتيبة - دمشق ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- العمارة في الأندلس (عمارة المدن والحصون) باسيليو بابون مالدونادو، ترجمة علي إبراهيم متولي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر ٢٠٠٥م.
- فضل الأندلس على ثقافة الغرب - خوان فيرنيت، نقله إلى العربية نهاد رضا، دار إشبيلية ١٩٩٧م.
- الفن الإسلامي في إسبانية، مانويل جونث مورينو، ترجمة د. لطفي عبد البديع ود. السيد سالم، الدار المصرية (د.ت).
- الفن الإسلامي في الأندلس، الزخرفة النباتية، باسيليو مالدونادو، ترجمة علي منوفي، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢م.
- الفن العربي في إسبانية وصقلية، فون شاك، ترجمة د. الطاهر مكي، دار المعارف، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، دار الفكر، ط٣.
- في تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، الإسكندرية ١٩٦٨م.
- في ظلال الأندلس، أ. سلمى الحفار الكزبري، وزارة الثقافة، دمشق.
- قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، أحمد أمين، النهضة المصرية، ط٢، (د.ت).

- القدح المعلّى في التاريخ المحلّى، ابن سعيد، اختصره ابن خليل، الهيئة المصرية العامة، ١٩٧٩م.
- قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (دراسة تاريخية عمرانية أثرية..)، د. السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة، بيروت ١٩٧١م.
- قرطبة في التاريخ الإسلامي، عودة هلال، محمد صبح، المكتبة الثقافية، القاهرة ١٩٦٢م.
- قرطبة في العصر الإسلامي (تاريخ وحضارة)، د. أحمد فكري، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٣م.
- قرة العين في فرح الزين، الملاح، تحقيق محمد رضوان الداية، أبو ظبي المجمع الثقافي ٢٠٠٣م.
- قصر الزهراء في الأندلس، نجلة إسماعيل العزّي، بغداد ١٩٧٧م.
- قضاة قرطبة، الخُشَني، الدار المصرية، ١٩٦٦م.
- محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها، ليفي بروفنسال، ترجمة د. محمد عبد الهادي شعيرة، مراجعة د. أحمد مختار العبادي، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٥١م.
- المرأة في المجتمع الأندلسي، د. راوية عبد الحميد شافع، عين للدراسات، القاهرة ٢٠٠٦م.
- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفُتيا، لأبي الحسن النباهي، تحقيق ل. بروفنسال، دار الكاتب المصري، ١٩٤٨م.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، القاهرة.
- المساجد والقصور في الأندلس، د. السيد عبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الإسكندرية، ١٩٨٦م.
- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، د. أحمد مختار العبادي، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨م.

- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت.
- المعجم الوسيط، معجم اللغة العربية، القاهرة ١٩٨٠م.
- مع شعراء الأندلس والمتنبي، تعريب د. الطاهر مكي، دار المعارف، مصر.
- المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط٢، ١٩٦٥م.
- المقتبس، ابن حيان الأندلسي، د. محمود علي مكي، المكتب التجاري، بيروت ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- نصوص عن الأندلس = ترصيع الأخبار.
- نفح الطيب، المقري، د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.
- ورد الشام، العماد مصطفى طلاس، دار طلاس، ط٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- الورد في تراثنا الشعبي، محمد خالد رمضان، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٦م.

تمّ الكتاب
والحمد لله رب العالمين

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

https://twitter.com/SourAlAzbakya

https://www.facebook.com/books4all.net